محمد جواد مغنية

من ذا وذاك

دار الكتاب الاسلامي

محمّد جواد مغنيّة

مِن ذا وذاك

منشورات
دار الكتاب الإسلامي
بيروت - لبنان

الكتاب : من ذا وذاك

المؤلف : محمد جواد مغنية

الناشر : دار الكتاب الإسلامي

بيروت ـ لبنان

التاريخ : ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م

المقـدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطّيبين .

هذه الصفحات :

وبعد :

فإنّ الإنسان كثيراً ما يمر بمخيّلته أفكار وصور هي من صميم الحياة ، ووحي ما يحيط به من أحداث . ثم تذروها الرّياح كأن لم يك شيء، إما لشاغلٍ أهم يصرفه عنها ، وإما لعجز يقف به عن بيانٍ يفهمه الناس ، وإما لفقر وحاجة إلى وسائل النّشر والإذاعة .

وقد توالت الأحداث الجسام في شرق الأرض وغربها ، بخاصة على العرب ، وبصورة أخص على لبنان حيث تراكمت عليه الصّواعق المرهقة المحرقة من الدّاخل والخارج صاعقة إثر صاعقة ، وتحت نيرها وضغطها وأثقالها كتبت فقه الإمام والتفسير الكاشف وفي ظلال نهج البلاغة ، وأخيراً

علم اصول الفقه في ثوبه الجديد ، وثابرت على الجهد حتى بلغت القصد بعد أن سلكت إليه طريقه، وطلبته ممّن هو في يده فأكرم وأنعم فله الحمد عدد ما أحاط به علمه .

وكان أثر تلك الأحداث يهبط بنفسي إلى حضيض اليأس أحياناً ، وحيناً يرتفع بها إلى الأمل وانتظار الفرج ، ويصعب على الكاتب أو الشّاعر أن يبتلع آلاماً تحز في أعماقه ، ولايشكوها ولو إلى شاكٍ مثله وباكٍ .. فشكوت تلك الأحداث ومشكلاتها في كلماتٍ نشرت بعضها في الصّحف، وسجلت بعضها الآخر فيما كان يشغلني من شرحٍ أو تفسير من حيث اريد أو لا اريد .

واجتمع عندي العديد من كلمات الجرائد والمجلات ، فذكرت طرفاً منها في كتاب «من هنا وهناك» وتركت الطّرف الآخر الفرصة تمر وتسنح . ثم تجدّدت الأحداث وتراكمت فزاد عدد الكلمات والمقالات .

والآن يجتمع في هذه الصّفحات قسم غير قليل مما كتبت ونشرت في الصّحف ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ١٩٥٢ ، وبعضها إلى سنة ١٩٧٥ ولا أدري ماذا سيدور في خلد القارئ ، وهو ينتقل من مقالة إلى ثانية ؟. وفي جميع الحالات فإنّ الأعمال بالنيات ، والله من وراء القصد .

لا نجاح بلا توفيق :

وأختم هذه المقدّمة بإشارة سريعة حول التّوفيق حيث سمعت نقلاً و شفاهاً أنيّ أكتب بسرعة عجيبة ، ولعل السّبب الموجب لهذا الظن كثرة الإنتاج في أمد قصير ، ومهما شككت فإنيّ لاأشك إطلاقاً أنّ النّجاح في أيّ عمل،فيه لله رضىً وطاعة لايكون ولن يكون إلا بتوفيق الله وعونه، وإليك البيان :

ليس من شك أنّ الإنسان مخيّر غير مسيّر ، فهو بالعقل يميز ، وبالقدرة يفعل أو يترك ، وبالإرادة يختار . ولكن هل يوجد إلى جانب ذلك مساعدة خاصّة من الله سبحانه يمنحها بعض عباده ، ويحرم منها الآخرين ؟ فيمد زيداً بالتّوفيق والتّسديد في عملٍ ينفعه دنياً وآخرة ، ويوكل بكراً إلى نفسه وتصرّفاته ؟

الجواب :

هناك قاسم مشترك يعم ويشمل المكلّفين على السّواء وهو أنّ من أهمل وقصّر كان وحده المسؤول عمّا فرّط وتهاون، قال سبحانه: «أنْ تَقُولَ نَفْسٌ ياحَسْرَتَى عَلَى ما فَرَّطْتُ٥٦الزمر» وقال : «فَمَنْ أبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها — ١٠٤ الأنعام » .

وقال الإمام الصّادق (ع) : « ثَلاثَةٌ لاَ تُسْتَجَابُ لَهُمْ دَعْوَةٌ : رَجُلٌ يَجْلِسُ في بَيْتِهِ وَيَقُولُ : يَا رَبِّ ارْزُقْني . فَيُقَالُ لَهُ : ألَمْ آمُرْكَ بِالطّلَبِ ؟ وَرَجُلٌ يَدْعُو عَلَى امْرَأتِهِ . فَيُقَالُ لَهُ : ألَمْ أجْعَلْ أمْرَها بِيَدِكَ . وَرَجُلٌ رَزَقَهُ مَالاً فَأفْسَدَهُ . فَيُقَالُ لَهُ : ألَمْ آمُرْكَ بِالاقْتِصَادِ » ؟ .

فمن هذه الجهة تأتي التبعة والمسؤولية من جانب الإنسان وحده ، أما النجاح في عمل يرضي الله ويثيب عليه فيستحيل أن يتحقق — كما أعتقد — إلا بعونه تعالى وتوفيقه . ومن الشّواهد قول نبي الله شعيب : « وَمَا تَوْفِيقي إلاّ بالله — ٨٨ هود » وقوله عز وجل لنجيّه وصفيّه : « وَلَوْلا أنْ ثَبّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً — ٧٤ الإسراء» . وحكايته عن النّسوة ويوسف « فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنّ — ٣٤ يوسف».

وهناك آيات تدل على التسديد والإرفاق بالمؤمنين فضلاً عن الأنبياء والمرسلين، منها ما جاء في ام موسى «لَوْلا أنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها ـ ١٠ القصص» . ومنها في الصحابة : «هُوَ الّذي أنْزَلَ السّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إيماناً مَعَ إيمانِهِمْ ـ ٤ الفتح» .. «وَلكِنّ اللهَ حَبّبَ إلَيْكُمُ الإيمانَ وَزَيّنَهُ في قُلُوبِكُمْ ـ ٧ الحجرات» . وبهذا الحب والإخلاص خاض الصّحابة معارك ضخمة وعظيمة في عدد قليل وعدّة أقل ، وبذلوا دماءهم في صدق من أجل الإسلام وافتدوه بالمهج والأرواح ، ولولا جهادهم لم يكن للإسلام عين ولا أثر .

وتسأل : إنّ الله سبحانه يُسيّر الكون والنّاس على نواميس أزليّة ومطّردة الأحكام ، ولو منح العون لهذا دون ذاك لكان المعنى أنّ الله يزن بوزنين ، ويكيل بصاعين ، كيف ؟ وهل يتفق ذلك مع عدله وحكمته ؟ تعالى الله علوّاً كبيراً .

الجواب :

أبداً لا جزاف ولا اعتساف في حكمه تعالى وأمره ، فكل شيء عنده بسبب وحساب ، فمن أصلح ما بينه وبين الله كان الله معه وأصلح أمر آخرته ودنياه، ومن أفسد فلا يلومنّ إلا نفسه ، قال جلّ وعزّ : «وَمَنْ يَتَوَكّلْ عَلى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ـ ٣ الطلاق» . وقال : «إنّ اللهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ ـ ٢٨ غافر» . «في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ـ ١٠ التوبة» . «وَالّذينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً ـ ١٧ محمد» .

وبكلمة : من كان مع الله كان الله معه .

وهو سبحانه المسؤول أن ينهج بنا سبيلاً سهلة إلى غفرانه ورضوانه . وصلّى الله على محمد وآله كأفضل ما صلّى على أحد من خلقه .

من وحي المولد الشريف

على حدود إسرائيل [1]

أستشعر ، وأنا هنا في هذا البلد الّذي يقع بين أنياب الأفعى ، ويجمع التيّارات المتناقضة المتضاربة ... أنّ موقفي هذا يحتّم عليّ أن أكون صريحاً وجريئاً في مواجهة الحقائق ، لا أُخادع ، ولا أُصانع ، ولا أترك كلمةً تُرضي الخالق مخافة أن تُسخط المخلوق . : « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَنْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . .

وأعوذ بك اللهم من متابعة الهوى ، ومخالفة الهدى ، وإيثار الغشّ على النّصيحة ، والباطل على الحق ، واجعلني اللهم مؤمناً قولاً وعملاً بشعار نبيّك ونجيّك الّذي خاطبك بقوله : « إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيّ فَلاَ أُبَالي » .

وبعد ، فإنّ من فضول القول ونافلته أن نعلن بأنّ أحوج ما نحتاج إليه اليوم هو التّعاون والتّعاضد ، والوقوف صفّاً واحداً في وجه العدوّ

(١) عشرون من قرى الحدود الجنوبية بلبنان ، وقد احتفل أهلها بالمولد النبوي الشريف سنة ١٣٨٦ هـ ــ على ما في الذاكرة ــ وتكلم في الحفل ذوو كلام ،ومنهم قائل هذه الكلمة .

المشترك : الاستعمار وربيبته إسرائيل ، هذه الشّوكة الدّامية هي وحدها السّبب الأول لإثارة الفتن والقلاقل في كلّ بلد عربيّ ، فما عرف العرب الهدوء والإستقرار منذ أن غرس الإستعمار هذه الشّوكة في قلوبنا .. ومحال أن يرضى الإستعمار لنا الهدوء والإستقرار ، ما دام على أرضنا شيء اسمه إسرائيل .

إنّ الإستعمار ليعلم حقّ العلم أنّ بقاء إسرائيل رهن بتشتيتنا وتفتيتنا ، فعمل لذلك بكلّ سبيل .. فهل يجوز بعد هذا أن نتصارع ونتنازع ؟.. هل يجوز بعد هذا أن يكيل بعضنا لبعضٍ التّهم جزافاً ، وبغير حساب ؟ ..

المؤمن المتديّن رجعي وعميل عند فئة ، والنّاقم على الأوضاع الفاسدة فوضوي هدّام عند أُخرى ، والسّاكت المتجاهل انعزالي عند الطرفين . ولا يرضى عنك لا هؤلاء ، ولا هؤلاء حتى تتّبع ملّتهم ، وما أنت بتابعها ، ولا هم بتابعيك ، ولا بعضهم بتابع ملّة بعض ..

ونصيحة لله أن لا تحاول إرضاء النّاس ، لأنّ إرضاء النّاس كلّ النّاس محال .. وكلّنا يعرف قصّة الشّيخ العجوز ، والشّاب اليافع ، والحمار .. إذن فاجعل شعارك قول الرّسول الأعظم (ص) : « إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيّ فَلا أُبَالي » . وقول الإمام أمير المؤمنين (ع) : « صانِعْ وَجْهاً واحِداً يَكْفِيكَ الوُجُوهَ كلّهَا » .

أُمهّد بهذه الإشارة ، لاعلن بأنّ الدّافع على هذا الحفل قرآني إلهي بحت يهدف إلى التّوجيه والتّوعية الدّينية الصّحيحة الخالصة ، لا شائبة فيه للسّياسة ، ولا لموازرة فئة ضد فئة ، ولا لأيّ غرض من الأغراض الشّخصية والغايات الحزبيّة .

وما نحن والسّياسة والمسوس .. ما نحن والأحزاب والمتحزّبون . .

نحن سفراء الله في أرضه ، نستمدّ النّور والهداية من زيتونة مباركة ، لا شرقية ولا غربيّة .. نحن حزب لله وحده ، لا للدمقراطيّين ولا الإشتراكيين ، ولا لغيرهم .. نحن إلهيّون ربّانيّون نؤيّد الحقّ أينما كان ويكون امتثالاً لأمر الله ، وميثاقه الّذي أخذه علينا : « وإذْ أخذَ الله ميثاقَ أهلِ الكتابِ لَتُبَيِّنُنَّه للنّاس ولا تكتمُونَهُ » .لا نكتمه أبداً ولو كره المشركون والمتحزّبون .

وأهم ما يجب علينا بيانه هنا ، ونحن على قاب قوسين أو أدنى من هذه المسمّاة باسرائيل : هل هي دولة حقاً ، أو أنّها أبعد ما تكون عن معنى الدّولة في حقيقتها رغم الضّجيج والعجيج ؟ . وقد أجاب الله عن هذا التّساؤل قبل وجود إسرائيل بأربعة عشر قرناً على التّقريب ، وبيّن سبحانه في كتابه العزيز أنّ إسرائيل هذه ليست دولة بما لهذه الكلمة من معنىً ، وإنّما هي شرذمة من الأشرار تجمّعوا من هناك وهنالك ، وألّفوا عصابة للسّلب والغصب بمساندة فئة من النّاس لأنّ الدّولة بمعناها الصّحيح هي الّتي تعتمد في وجودها واستمرارها على حولها وقوّتها ، وثروتها وهيبتها ، لا على قوّة الإستعمار وماله وسلاحه .. وكلّنا يعلم أنّ الإستعمار هو الذي أوجد إسرائيل ، وأنّه ما زال يظاهرها بالمال والسّلاح ، وأنّه لو تخلّى عنها لحظة واحدة لتخطّفها العرب ، وتلاشت من الوجود ، ومعنى هذا في حقيقته وواقعه أنّ إسرائيل ليست بدولة ، وإنما هي مظهر من مظاهر الإستعمار الغربي ، وأثر من آثاره ، وبقيّته الباقية في بلاد العرب .. وكما زالت سائر مظاهر الإستعمار الغربي وآثاره من أرضنا فلا بد وأن يزول هذا الأثر المتجمّع المتجمّد على أرض فلسطين ، مهما طال الزّمن .. ومحال أن يستمرّ الإستعمار ويدوم ، كما رأينا ، وكما سنرى ... وإنّ غداً لناظره قريب .

ومن هنا كان القرآن عليماً ودقيقاً في قوله : « ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

الذِّلَّةُ أيْنَمَا ثُقِفُوا إلاّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النّاسِ وَباءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » .

إنّ الذِّلَّةَ والمسكنة وحبل النّاس في هذه الآية الكريمة إخبار بالغيب عمّا حصل لإسرائيل بعد نزول القرآن بمئات السّنين ، وإشارة واضحة صريحة إلى استجداء المساعدات التي يتصدّق بها الإستعمار على إسرائيل ، وأيّ ذل ومسكنة أعظم من العيش على التّسوّل والصّدقات ؟ ..

أما حبل الله في هذه الآية فهو إشارة صريحة أيضاً إلى أنّ الله سبحانه قد تركنا والجهاد مع إسرائيل ، ولم يردعها بقدرته القاهرة على طريقة « كُنْ فَيَكُونُ » . لأنّ الله جلّ وعلا قد دعا النّاس إلى العمل بإرادتهم واختيارهم ، وأمرهم بالجهاد والتّضحية لنصرة الحقّ على الباطل .. ومحال أن يكون المراد بحبل الله مساعدة اليهود ومناصرتهم ، كيف وقد وصمهم بالذلة والمسكنة ، وبغضب منه بما عصوا وكانوا يعتدون .

وأدرك الإستعمار هذه الحقيقة ، وأنّ وجود إسرائيل لا يقوم على أساس من حولها وقوّتها ، بل على الصّدقة والتّسوّل ، وأنّ بقاءها رهن بتشتيتنا وتفتيتنا لابعتاد الإستعمار وصدقاته بالغةً ما بلغت ، وأنّه متى اتّحدت قلوبنا واجتمعت كلمتنا فلا يبقى له ولا لربيبته عين ولا أثر .. أدرك الإستعمار هذه الحقيقة ، وخاف أن يأتي اليوم الّذي تجتمع فيه الصفوف ، وهو آتٍ لا محالة ، وسترون .. خاف الإستعمار من هذا اليوم ، يوم الفصل والحسابً ، فراح يخوّفنا من الشّرك والإلحاد ، ليصرفنا عنه وعن إسرائيل ، وهو المشرك الملحد ، الخائف من ثورتنا وقوّتنا وتوحيد كلمتنا .. خائف من السّدود تقام على مياهنا ، خائف من المصانع تبنى في أرضنا ، خائف من المعاهد تشاد لأبنائنا ، خائف أن نطمئنّ على عيشنا وغدنا ، فنثور على الظّالمين والمستغلّين والمستعمرين .. إنّه يريدنا أن

نستمرّ في الجهل والفقر ، والتّمزيق والتّفريق ، ليستمرّ هو بدوره في استغلالنا ، ونهب مقدّراتنا ، واحتكار أسواقنا ، وإذلالنا باحتلال فلسطين ، واغتصاب أرضها ، وتشريد شعبها ..

أيّها المسلم المحمدي .. أيّها المسيحي الوطني .. أيّها الشّاب العربي لا وطن إلا بالوحدة الوطنيّة ، ولا عروبة ولا قوّة بل لا حياة إلا بالتّعاون والتّكاتف مع جميع القوى والعناصر لدرء هذا الخطر المحدق بالجميع .

إنّ الخائف حقّاً من تجمّعنا وتعاضدنا هو الإستعمار والصّهيونية .. أما نحن فلنا من عظمة ديننا ، وقوّة شريعتنا ، ومجد تأريخنا ، وإخلاص المخلصين من علمائنا ، ووعي الطّيبين من شبابنا ما يعصمنا عن الشّرك والإلحاد ، وعن الفلسفات المادية والقوانين الرّجعية .

لقد بلي الإسلام بما بليت به سائر الأديان عبر التاريخ والعصور من الإنتهازيين والمنحرفين الّذين تاجروا باسم الدّين ، وابتعدوا بأهله عن غاياته وأهدافه ، ولكن هؤلاء ، تماماً كإسرائيل معروفون مفضوحون على رؤوس الأشهاد لا قوّة لهم ، ولا هيبة ، ولا وجود إلا بحبل من الإستعمار والصّهيونية ، إنّهم فقاقيع يذهبون مع الرّيح من أول نسمة تهب لرياح التحرر والوطنيّة : « فأمّا الزّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وأمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأرْضِ » .

نحن لا نُخدع بالألفاظ ، ولا يغرنا التّظاهر باسم الدّين والإسلام ... نحن نعلم علم اليقين أنّ الصّرخات الهستيرية باسم الدّين هي صرخات الذّعر والخوف على المصير ، وصيحات القلق والرّعب من الثّورات والتحركات تدك عروش الأدعياء ، وتحطّم تيجان العملاء ..

ونعلنها صريحة واضحة باسم محمد الذي نزع التيجان عن رؤوس

الملوك والجبابرة ، وألقاها تحت أقدام رعاة الإبل .. نعلنها صريحة واضحة إننا مع كل حركة مخلصة تستهدف القضاء على الإستعمار والخطر الصّهيوني ، والتّسابق إلى التّسلح بأسلحة الفناء .

نحن مع كلّ حركة وطنيّة تعمل لإقامة حياة يتحرّر فيها الإنسان من الجهل والفقر والإستغلال ، ويستقل فيها العقل والتّفكير ، ويشعر كلّ فرد بأنّه سيّد نفسه ، ومالك أمره ، وأنّه في حصنٍ حصين من حمى الله وصيانته ، يرتبط حقّه بحق خالقه ، وحرمته بحرمة ربّه إلا إذا هو انتهك حرمة ذاته بالتّعدّي على حرمة غيره ، وعندها يأتي سلطان الحق الّذي يعلو على كلّ شيء ، ولا يعلو عليه شيء .

هذا هو الوجه الصّحيح للإسلام ، وهذا هو الطّريق القويم إلى جنّة الخلد .. ثورة على التّأخر والإنحطاط ، وكفاح من أجل التّطوّر والتّقدّم ، وحرب على الجهل والإستبداد ، لا عمّة ولحية ، ولا دروشة ومسكنة ، ولا تبعيّة وعمالة ، ولا تحزّب وتعصّب ، بل ولا احتفالات جامعة وخطب طنّانة إلا أن تكون عواصف وقواصف تنزل على رؤوس الخائنين والمضلّلين .

هذا هو الوجه الصحيح للإسلام ، أما الوجه الآخر الّذي نرفضه نحن وأنتم أيها الشّباب ، والذي يعكس التّخلّف والرّجعية والخيانة باسم الأحلاف الإسلامية واسم التّكتّلات الدّينية لأهداف شيطانية ، أما هذا الوجه فما هو من الإسلام في شيء ، ولا الإسلام منه في شيء .. إنّه تحايل الأوغاد ، ونفاق أهل الفساد .

فإذا كنتم أيّها الشّباب من ذوي الأدمغة الواعية ، والعزيمة الصّادقة فتعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أن نعمل جاهدين على حلّ مشاكلنا . تعالوا نضرب يداً بيد ، ونمشي جنباً إلى جنب للوصول إلى مصلحة الجميع ،

تعالوا لا خلاف بيننا وبينكم إذا كانت الأهداف شريفة نبيلة ، وإنّما الخلاف بين المستغلّين والمنتفعين بعضهم مع بعض ، لا بين دعاة الصّلاح والإصلاح ، وأصحاب الفكرة النيّرة ، والرّسالة الخيّرة .

أنا لا أُصدّق أبداً أنّ الشّباب الواعي هو ضدّ الدّين ، والإحتفالات الدّينيّة . كيف ودين محمد هو دين الحياة والإنسانية ، ولولاه لما بزغت شمس العدالة والحرية على هذا الوجود ، وما حاربه أحد من عهده الأول إلى هذا اليوم إلا جاهل ، أو لص يعيش على حساب الكادحين والمستضعفين.

نحن وأنتم أيّها الشّباب ضدّ المنحرفين عن الدّين وأهدافه الّذين يتاجرون باسمه وشعاره المقدّس .. ولكن عليكم قبل أن تتّهموا أحداً بالإنحراف أن تجرّبوا وتميّزوا بين من يصلّي على الميت نهاراً ، ويسرق كفنه ليلاً ، وبين من يستهين بالموت في سبيل الحقّ والعدالة .. عليكم أن تستروحوا ، وتستوحوا من سيرة محمد (ص) أنّ المخلص لدينه ووطنه هو الأمين العفيف عن المحرّمات والموبقات ، والمكافح المعاند لأهل الضّلال والفساد، والحليم الذي يتّسع صدره وقلبه للجميع ، حتّى لخصومه وأعدائه ، فلقد جيّشت قريش الجيوش لحرب الرّسول الأعظم ، وحين دخل مكة منتصراً عليهم أطلقهم وعفا عنهم ، ليثبت لهم ولغيرهم أنّ صاحب الرّسالة والمبدأ فوق الشّخصيّات والحزازات على العكس من المنحرفين والإنتهازيين فإنهم إذا ظفروا نكلوا وغدروا كما فعلت أُمية ، وكما يفعل كلّ خسيس لئيم لا دين له ولا مبدأ ولا شيء سوى حقده وأنانيته .

وبعد ، فلا أدري كيف يكون المرء داعية صلاح وإصلاح ، ولسانه لا يفتر عن التّهم والإفتراء ، وقلبه يتفجر بالحقد والبغضاء ، وفرجه يتلوّث بالدّعارة والفجور ، وبطنه تمتلىء بالحرام والخمور ... أللهم إلا أن يكون يزيد بن معاوية داعية إصلاح ، وقسطاس عدل ...

الصهيونية والقرآن

تعمل الصّهيونية جاهدة على التّشكيك بالقيم الإنسانية ، وبكلّ دعوة تقوم على الصّدق والعدل ، وتنكر الزّور والبغي ، وتساوي بين النّاس في الحقوق والواجبات .. ذلك بأنّ لليهود — بوجه العموم — عقيدة عنصريّة تعتبر أنّهم شعب الله المختار ، وأنّ غيرهم من الناس مسخر لخدمتهم ومصالحهم ، وأنّ لليهودي كلّ الحق أن يمتلك أيّ إنسان في الشّرق والغرب ، ويفعل به ما يشاء تماماً كما يمتلك الحيوان .. وعلى هذا نصّت التّوراة بوضوح وصراحة في سفر التّثنية الإصحاح السّابع ، وسفر العدد الإصحاح ٣١ .

أما كتاب التّلمود فيقول : « نحن شعب الله المختار نحتاج إلى نوعين من الحيوان ، نوع أعجم كالدّواب والأنعام والطّير ، ونوع الحيوان الإنساني وهم سائر الامم من الشّرق والغرب » .

ولما كان القرآن والإنجيل حرباً على هذه الوحشيّة الكاسرة ، وعلى كلّ عنصريّة — قرّر اليهود قتل عيسى ومحمد .. ولما عجزوا عن اغتيال رسول الله بالسمّ والقضاء على رسالته دسّوا الأحاديث المكذوبة على لسانه ، ثم طبعوا ألوف النّسخ من القرآن بعد أن حرّفوا الكثير من آياته واشتروا

بعض المزيّفين من أرباب العمائم للتّشويه والتّضليل باسم الدّين .

وحين ظهر أمرهم وافتضح مكرهم سلكوا سبيلاً آخر أدهى وأحكم. اكتشفته وأنا أقرأ جريدة أخبار اليوم المصريّة تاريخ ٢١ – ١٠ – ١٩٧٢. وأحسب أنّ أحداً من القرّاء لم يتنبه إليه .. وهو أنّ اليهود – بحكم ما لهم من سيطرة ونفوذ على أجهزة الإعلام – نشروا في الصّحف الغربية أنّ الكلاب في جزيرة « باربادوس » إذا قاربت الوفاة تذهب إلى مقبرة خاصة لتموت فيها .. حتّى كلاب الجزر الاخرى المجاورة تسبح المحيط . وتتّجه إلى هذه المقبرة دون معرفة سابقة بها . وتموت هناك كما أحبّت وأرادت.

وأيضاً إنّ القطط في جزيرة « أوزيل » حين تشعر بدنوّ الأجل تسرع إلى مقبرة معيّنة لتموت فيها بهدوء وأنّ القطط في هذه المقبرة تتعايش مع فيرانها بأمن وسلام ، لأنّ القطط في شغل بالتّفكير في الموت وأهواله عن الفيران .

تنشر الصّهيونية هذه الأباطيل والأضاليل في صحف غربية . وبلغة أجنبية إبعاداً للشّبهة . وإحكاماً للخطّة . ثم تصل هذه الصّحف بطريق أو بآخر إلى الكاتبين ومحرّري الصّحف في مصر وغير مصر . ويتلقفها بعضهم ويترجمها وينشرها عن قصد أو غير قصد . وهذا ما تريده الصّهيونية وتهدف إليه عسى أن يصدّق جاهل أو ذاهل فيشكك فيما نطق به القرآن وأكده بقوله : « وما تَدْري نَفْسٌ بِأيّ أرْضٍ تَمُوتُ –٢٤ لقمان » .

إقرأ الصفحة الأخيرة من جريدة أخبار اليوم المصريّة تاريخ ٢١–١٠ ١٩٧٢ . وقد دأب كاتبها على نشر الشّواذ والغرائب التّي تفوح منها رائحة تزكم الانوف ويتصاعد منها دخان يعمي العيون من حيث يريد أو لا يريد.

• أيّاً كان القصد فنحن نسأل ، لماذا اختصّت بهذه المنقبة ، الفضيلة كلاب باربادوس وقطط أوزيل دون غيرها من القطط والكلاب ، ودون العالم كلّه منذ وجد إلى اليوم ؟ وقال أهل الاختصاص والعارفون بطبائع الحيوانات : أنّها لا تخاف الموت إطلاقاً لأنّها لا تشعر به وأنّ الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف أنّه سيموت ، أما غيره من الحيوانات فإنّه يشعر بذاته كموجود وكفى .

وبعد ، فهل نحن في حاجة إلى الحديث عن قطط أوزيل وكلاب باربادوس ، أو الحديث عن توحيد الكلمة وإعداد العدّة لتحرير أرضنا المحتلّة ، وعن الضّابط الشّاب الّذي ذهب وحده في تظاهرة إلى مسجد الحسين عليه السّلام بالقاهرة ؟ . وكنت أنتظر وأبحث في الصّحف المصريّة أن تشير – ولو من طرف خفي – إلى أنّ هذا الضّابط الشّاب إنّما اختار مسجد الحسين بالذّات لأنّ هذا الإسم الشّريف يرمز إلى التّضحية والفداء في سبيل أسمى ما يدافع عنه الإنسان من قيم الحق والعدل والحريّة ... فكانت النتيجة هذه المسرحيّة للقطط والكلاب ، وأنّها تعلم متى وأين تموت .

المال العربي إلى أين؟

أعطت أميركا لإسرائيل فوق ما ترجو وتحلم من مال وسلاح لتمكّن لها في أرض العرب وديارهم . وحين وقعت الحرب الرابعة ، وأشارت كل الدلائل إلى حضرة إسرائيل طار الصّواب من رأس اميركا وجنّ جنونها . وتحوّلت بطاقاتها إلى جسر هوائي من أحدث الأساحة بينها وبين تل أبيب .. فغضب العرب غضبة جماعية ، وقطعوا النّفط عن أميركا ، وقالوا لها : جزاء سيّئة بمثلها . فسجدنا لله شكراً على ما كنا نعده ونراه أكثر من حلم وخيال .

ولكن بعد أن تضاعفت أسعار النّفط . وتكدّست أثمانه بالمليارات حملها العرب بالكامل إلى أميركا ومصارفها ، وضاعفوا بذلك من قدراتها على تزويد إسرائيل وإمدادها بالمال والسّلاح ممّا زادها عتوّاً وعدواناً . وكلّنا يعلم أنّ قوّة أميركا وإسرائيل هي قوّة لسلطان البغي والجور في شرق الأرض وغربها ، وهل أدل على ذلك مما حدث ويحدث من ظلم ومظالم في فيتنام وروديسيا وجنوب أفريقيا والمستعمرات البرتغالية ، وغيرها كثير . وهكذا أصبح المال العربي — من حيث لا يريد أهله ، أصحابه — سلاحاً يعتدى به على العرب أنفسهم وعلى كل شعب مستضعف في أرض الله وبلاده.

ولا أدري لماذا نسكت عن هذه الحقيقة ، ولا نطرحها على بساط

البحث حين نعقد المؤتمرات والمجتمعات السّياسية والدّينية من أجل العمل الموحد لمواجهة العدو المشترك ، ولا نشير إليها من قريب أو بعيد فيما نصدر من قرارات ، ونعلن من تصريحات ؟ . وإذا سكت رجال السّياسة لسبب أو لآخر فلماذا نسكت نحن الدّعاة إلى الله ودينه . ولا نبيّن ذلك للنّاس ، ونذكّر أصحاب المليارات والعائلات النّفطيّة ؟. أليس لنا في كلّ شهر مؤتمر ، وفي كلّ جمعة ألف خطاب ، وفي كلّ بلد منظّمة أو أكثر ترفع شعار الإسلام ؟ فلماذا نتجاهل هذه الحقيقة ، وأي شيء أهم منها وأعظم ؟. وهل التّذكير بذلك لا يتّفق مع دين الله وشريعته ؟ .

إنّ أخطر المظالم وأبعدها أثراً السكوت عن المنكر ، وتحلّل القائد والمرشد من واجباته والتزاماته . وكنت قد أبرقت لبعض المؤتمرات الإسلامية . ، ناشدت المؤتمرين أن يبحثوا علاقة العرب والمسلمين مع أميركا في ضوء سلوكها مع إسرائيل ، ونشرت ذلك جريدة النهار ١٥ – ٩ – ١٩٧٢ . ولكنهم غضّوا الأبصار ، وختموا على الآذان ! . ثم تحدّثت مفصّلاً عن المؤتمرات الدّينية في فصل خاص من كتاب الإسلام بنظرة عصريّة .

والّذي حزّ في نفسي أنّ الشّيوخ ما صمّوا الآذان عن ندائي لأنّه خطأ واشتباه . كيف وقد درسوا في الفقه الإسلامي أنّ بيع السّلاح للعدوّ حرام محرّم وعلى حدّ الشّرك بالله ؟. وبالأولى تقوية العدوّ بالمال يشتري به أنواع السّلاح وكلّ ما يحتاج إليه المحاربون . ولولا المال العربي ، وتصديره إلى أميركا ما أغرقت إسرائيل بالمساعدات المالية والعسكرية . ولا تسابق المرشّحون للبيت الأبيض في إرضاء إسرائيل من أموال النّفط العربي . ولا قالت غولداماير : أعطانا نيكسون من المال والسلاح ما يزيد على جميع الرّؤساء السّابقين .

والآن أعود ثانية إلى هذا الموضوع لأنّني قرأت في حقيبة النّهار

٣١ – ٨ – ٧٤ كلمة الاستاذ ميشال أبو جودة فوقفت دهشاً عند قوله :

« من حق المواطن العربي أن يتساءل : كيف يقرض العرب أوربا خمسة مليارات دولار بينما تقترض مصر العربية من أوربا نفسها مئة مليون؟ ولماذا لا تقترض مصر مباشرة من العرب لا مئة مليون فقط بل ملياراً وأكثر ؟ وهذا التساؤل يثير تساؤلاً آخر حول حاجة فورد رئيس الولايات المتّحدة – كما قالت الموند الفرنسية – المليارات العربية ليتغلب على الأزمة الماليه الاميركية . والمليارات العربية تعني فيما تعنيه السّندات الاميركية المعروضة على السّعودية والكويت . وتتجاوز قيمتها عشرة مليارات دولار » .

والغرابة هنا أنّ العرب ينجدون أصدقاء إسرائيل . ويجودون على مصارفهم بالمليارات . ومصر تستجدي هذه المصارف الموالية للصهيونية ، وتطلب القليل من المال العربي لتستعين على مواجهة اسرائيل ! .. يا سبحان الله ما هذا التناقض ؟ وما هي فلسفته ؟. نمدّ العدوّ بسلاح الهجوم علينا والفتك بنا . ثم نرجوه ونستجديه بعض الشّيء مما جدنا به عليه ليردعه عن عدوانه على أرضنا وديارنا !.. ومرّة ثانية يا سبحان الله .

وأجاب الدكتور شارل مالك عن هذا التناقض في جريدة النهار ١ – ٩ – ٧٤ أجاب بأنّ أميركا حرّة ، والعرب أيضاً أحرار !.. وهذا الجواب ينسجم تماماً مع منطق العالم الحر الّذي يدين به الدّكتور .والعالم الحر يعني أنّ الفرد هو الغاية ، وليس الناس والمجتمع . وفي ظنّي ومعرفتي أنّ هذا التّناقض ظاهرة من ظاهرات النّظام الجائر ، وآثار الأوضاع الفاسدة .

وبعد ، فانّ الحرب الرابعة مع إسرائيل كانت مثالاً حيّاً لأمرين مهمّين لا ثالث لهما :

الأول : أنّها أعادت للإنسان العربي شيئاً من كرامته . ما في ذلك ريب .

الثاني : أنّها قضت على خرافة إسرائيل التي لا تجبر ولا تقهر ، وعلى الإعتقاد بأنّ حرب سنة ٦٧ هي آخر حروب العرب مع إسرائيل . ولا شيء وراء هذين الأمرين على الإطلاق .

فالأوضاع الدّاخلية في البلاد العربيّة بقيت كما هي دون تقليم أو تطعيم، بل ازدادت سوءاً كوضع الأمن في لبنان . والتناقضات داخل المقاومة الفلسطينية لم تهدأ ثورتها . أما فك الإرتباط في القنيطرة والقناة فما هو بشيء يذكر ما دامت إسرائيل تحتل غزّة والقدس وشبراً واحداً من سيناء والجولان والضّفّة الغربية .. وبالتالي فلا جدوى من حرب خامسة وسادسة إلا مع استعمال النّفط العربي والمال العربي ضدّ أميركا بالذات .. أللهم إلاّ إذا تحوّلت عن إسرائيل ، ولن تتحوّل عنها حتّى يلج الجمل في سُمّ الخياط .

حول الحوار المسيحي ـ الاسلامي *

عام ١٩٤٥ انعقد مؤتمر مسيحي – إسلامي في بحمدون ، وقال هوبكنز الاميركي المشرف آنذاك على هذا المؤتمر : « إنّ الغاية منه تحقيق المثل العليا لمحاربة العدو المشترك للإسلام والمسيحية ، وهذا العدو هو المغريات الدّنيوية والأغراض المادية والشيوعية » . والآن ينعقد مؤتمر مماثل في برمانا ويقول ستالي المسؤول عن التحضير للمؤتمر : « الهدف منه تعميق المفاهيم المشتركة بين الديانة الإسلامية والديانة المسيحية . واكتشاف الطّاقات الرّوحية لتسخيرها في خدمة الإنسانية . وشرح بناء المجموعة البشرية لحلول المشاكل الإنسانية على المدى الطويل » .

هذه هي أهداف مؤتمر برمانا . أما مداليل الكلمات وتحديد المفاهيم . فمن اختصاص المجامع اللغوية ولا صلة لها بالشؤون الدّينية .هذا إلى أنّ كلمة واحدة وبسيطة جدّاً مثل « اعتداء » قضت الامم المتحدة ٢٧ سنة تبحث وتدقق وتعقد الجلسات المتواصلة من أجل تحديد معناها من دون أن تتفق على شيء . فكيف الإحاطة بمعنى « تعميق المفاهيم المشتركة وبناء المجموعة البشرية بقضّها وقضيضها واكتشاف طاقاتها الرّوحية » ؟

---

* جريدة النهار / ٨ / ٧ ١٩٧٢ .

وأيضاً انعقدت مؤتمرات وندوات كثيرة بين رجال الطّوائف والمذاهب تحت شعار التّسوية والتّقريب بينها . فمنذ ثماني سنوات شهدت روما المجمع المسكوني لتسوية الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس ، والدّيانات الاخرى . وأيضاً انعقد مجلس الكنائس العالمي في سالونيك ، ثم في نيودلهي . وعقد المسلمون مؤتمرات هنا وهناك .

وفي هذا الجو المشحون بالتّحركات الدّينية انطلقت الدّعوة إلى دمج القرآن والإنجيل في مجموعة واحدة ، ونشرت النّدوة اللبنانية كتاب المسيحية والإسلام في لبنان لمجموعة من القلانس والعمائم « المشوشين » . وزارني في بيتي رجل أميركي يدعى جفرسون استمند وقال « أنا ممثل المنظمة العالمية للقوى الروحية من أجل الإنسانية » . وطلب مني أن أكون عضواً فيها ثم أرسل إليّ كتاباً مطوّلاً قال فيه من جملة ما قال : « إنّ عندي حوالات ماليّة لمراحل إنشاء معهد أبحاث العالم الواسع وأُريد التّعاون معكم » !

والآن لست في صدد الحديث عن الأسباب والدّوافع لأبحاث العالم الواسع ، ولا لتلك المؤتمرات والنّدوات ، إنما غرضي أن أُشير إلى شيئين :

الأول : إنّ هذه التحركات باسم الدين والإنسانية ما أفادت شيئاً في أي ميدان . وكلما زاد نشاطها وتكرّر انعقادها زادت الويلات والإعتداءات على المستضعفين في شرق الأرض وغربها . أبداً ما أعطت شيئاً هذه التحركات على الإطلاق ، فلا هدت ضالاً ولا أشبعت جائعاً ولا علّمت جاهلاً ولا أغاثت ملهوفاً ولا دفعت عدواناً . اللهم إلا المجمع المسكوني فإنّه ، بفضل الكاردينال الألماني بيا ، عفا عن اليهود وبرأهم من دم السيّد المسيح ورفع عنهم اللعنات التي كان المسيحيون يكرّرونها على اليهود في صلواتهم صباحاً ومساءً .

الشيء الثاني الذي أقصده من هذه الكلمة هو طلب الجواب عن هذه التساؤلات أيّاً كان المجيب :

لماذا سكتت تلك المؤتمرات والنّدوات المختلطة وغير المختلطة عن مظالم إسرائيل في فلسطين من التقتيل والتّشريد الجماعي وهدم البيوت والإستيلاء على الأملاك بالقوّة ؟ وأيضاً لماذا سكتت عن مظالم حكومة أثيوبيا واضطهاد المسلمين في بلاد الحبشة إلى حدّ استرقاق المسلم إذا لم يف بدينه للمسيحيين ، لا لشيء إلاّ لأنّ الحكم مسيحي مع أنّ الأغلبية هناك للمسلمين (كتاب « معركة الإسلام والرأسمالية » للسيّد قطب) . أما مظالم المسيحيين في الفيليبين فإنها تجاوزت كلّ حد . فقد نشرت صحيفة « أخبار اليوم » المصرية في عددها المؤرخ ٨ – ٧ – ١٩٧٢ : « أنّ المسيحيين قتلوا من المسلمين خلال ثلاث سنوات ٥٠٠ ألف نسمة وشرّدوا ٢٠٠ ألف واستولوا من أراضي المسلمين على أكثر من مساحة لبنان مرّة ونصف مرّة » . وهذا مثال من عشرات .

فما هو موقف مؤتمر برمانا من هذه المآسي وغيرها ؟ لقد نشرت الصّحف أنّ هذا المؤتمر يضم ٥٠ عالماً من المسيحيين والمسلمين ، فهل يبحث هؤلاء الخمسون جرائم الاستعمار والصّهيونية في فلسطين والحبشة والفليبين والهند الصينية وأفريقيا وغيرها ، أو يتجاهل المؤتمر كما فعل غيره من قبل جرائم إسرائيل واستهتارها بالدين والضمير الإنساني . وبقرارات الامم المتحدة ومجلس الأمن ؟ إنّه والله لفتح كبير ونصر عظيم لعيسى ومحمد إذا وقف الخمسون في برمانا موقفاً تاريخياً يرضي الله ويغضب الصّهاينة والمستعمرين .

وأقولها بوضوح : إنّ كلّ الناس يعلمون أنّ الصهاينة يحشدون كل قوّة ويستخدمون كلّ اسلوب لتغطية جرائمهم وفظائعهم ، وإنّ كلّ قوى الشرّ في شرق الأرض وغربها تساندهم على جميع المستويات . فما أحوج الإنسانية في هذا العصر إلى مؤتمر محمدي عيسوي يأخذ بيدها وينتصر لها من الصهيونية العالمية التي تمتص دم الإنسانية ، وتنهش أحشاءها .

لا قيادة وقائد عام في العالم الاسلامي

قرأت في جريدة « السّفير » ــ ١٠ ــ ٨ ــ ٧٥ كلمة للاستاذ إبراهيم عامر . أشار فيها إلى مشاريع الإستيطان الصّهيوني في الأرض العربية ، وضم القدس وتهويدها . وتحويل الحرم الإبراهيمي إلى كنيس صهيوني ، وختم كلمته بهذا النّداء : « أين هي المؤسّسات الإسلامية لكي تدافع عن حرمة الحرم الإبراهيمي » ؟.

وهنا حقيقة لا بدّ من إعلانها على قسوتها ومرارتها ، ولو أنّ الكاتب أحاط بها علماً لسكت يائساً من كلّ من تحدث ويتحدّث باسم العالم الإسلامي.

وتتلخص هذه الحقيقة بأنّ المسلمين اليوم أشبه بقطعان من النّعم غاب راعيها حيث لاقيادة عامّة ولا قائد تُعطى له الكلمة باسم العالم الإسلامي بكامله . أجل ، يوجد في العراق أو إيران أكثر من مرجع ديني للشّيعة يبين لأتباعه ومقلّديه حلال الله وحرامه ، ولكن لا أثر له وتأثير في أيّة حادثة أو كارثة يعانيها الإسلام والمسلمون في بقاع الأرض وأطرافها ، أما شيخ الأزهرو «الإمام الأكبر» فهو موظّف يعيّن بمرسوم من رئيس الدّولة ، وينحّى بمرسوم ، ولا يقول إلا ما يقال له خيفة على منصبه ، وأيضاً يوجد في البلاد الإسلامية منظّمات طائفية ، ومؤسسات إقليمية تعقد اجتماعاتها ،

وتذيع منشوراتها ، ولكن لا تمثّل إلا نفسها ، وبعض منها لا يحمل شعار الدّين إلا ليمتص غضب المحرومين ، ويدعم نظام القلّة من أرباب الملايين .

لقد انتهبت إسرائيل وطناً عربياً بكامله ، وأضافت إليه ما أضافت لتحقق حدوداً أوسع ، وحرقت المسجد الأقصى ، وتعمل الآن على تهويد الحرم الإبراهيمي بعد تهويد القدس ، وما يأتي أدهى وأمر ، والعالم الإسلامي ككل غائب لا يؤوب .

ومنذ ست سنوات انعقد مؤتمر القمة الإسلامي بمناسبة إحراق المسجد الأقصى ، ولكنّه انقلب على عقبيه ، وخلّف وراءه الفضيحة والشّماتة . بكلّ عربي ومسلم ، وكان بعض الحاضرين تقدّم باقتراح متواضع بأن تقطع الدّول الإسلامية علاقاتها بإسرائيل فرفض الإقتراح ... وحتى اليوم تقوم بين إسرائيل وبعض الدّول الإسلامية أطيب العلاقات في حين ترفض أيّة علاقة مع الصّين الشّعبية الّتي تقف ضدّ إسرائيل في كلّ مناسبة .

وبالأمس القريب انعقد مؤتمر وزراء خارجية الدّول الإسلامية في جدّة . وانفضّ بلا شيء يحفظ ماء الوجه .. بلى قرأت في جريدة الأهرام – ٧٥/٧/٢٥ أنّ هذا المؤتمر أبدى ارتياحه لجهود اللجنة الّتي كان مؤتمر بنغازي قد ألّفها للوصول إلى اتفاق مرض بين حكومة الفيلبين والثوار المسلمين هناك ، ثم قرأت في هذه الجريدة نفسها–٨–٨–٧٥ كلمة من عبد الباقي أبو بكر قائد الثورة في الفيلبين جاء فيها : «إنّ الرد العملي على نداء المؤتمر في بنغازي وتشكيل اللجنة هو أن قتلت حكومة الفيلبين أكثر من ٤٠ ألف مسلم» .

ولو كان في العالم الإسلامي قيادة عامة وصالحة لوضعت حدّاً لمن يبتز الإسلام ، ويستغل شعاره لمطامع أعداء الإنسان والأديان .

وما دمنا أبعد الناس عن روح الإسلام بكلّ ما له من معنى ، ولا موقع

بيننا لقيادة إسلامية شاملة – فعلينا أن ننسجم مع الواقع وأنفسنا وندع الحديث عن الإسلام والمؤتمرات والمؤسسات باسمه رياءً أو حياءً. لقد واجه الإسلام الكثير من الغزو والدسّ والتّحدي من الخارج وهو يواجه الآن الأحلام الصّهيونية والأطماع الاميركيه ، وكلّ ذلك ومثله معه ليس بشيء لوصلحت نوايا السّاسة المسلمين خالصة لوجه الله والإسلام .

إنّ الإسلام حرب على الباطل والضّلال ، وثورة على الظّلم والفساد ، والولايات المتحدة تحتل مركز الصّدارة في دنيا الجرائم ، وتمارس أعنف المعارك ضدّ المحرومين . وتحمل لواء الشّر في العالم كلّه بخاصّة في العالم الإسلامي . وبصورة أخص في العالم العربي ، وكفى شاهداً سياستها مع إسرائيل ، فقد منحتها أوسع الفرص للعدوان والإحتلال والضّم والتّهويد والحرق والطّرد والتّشريد والقتل والتّدمير والغارات على لبنان ليل نهار ، وأوقفت حرب تشرين بكلّ الوسائل لا للّسلم والأمن ، بل لتثبيت الإحتلال الصّهيوني خطوة فخطوة .

وحالت الولايات المتحدة دون تطبيق قرارات مجلس الأمن في حق إسرائيل حتّى قرار طلب الكف عن العدوان ألغته الولايات المتحدة ، في سنة ١٩٧٢ اتخذ مجلس الأمن قراراً بوقف غارات إسرائيل الإنتقامية على لبنان فنقضته امريكا بحق الفيتو .. أليس هذا تشجيعاً وتحريضاً على العداون والجريمة وعلى قتل النّساء والأطفال والشّيوخ والعجز ؟

وبعد هذا الفيتو المشجع المحرّض انعقد مؤتمر إسلامي في مصر ، وثانٍ في الجزائر ، وثالث في ليبيا ، ورابع في بغداد ، والخامس في جدّة.. أبداً ولا موقف واضح ومحدّد ضد الولايات المتّحدة ، بل ولا كلمة واحدة تشير إليها بالإسم الصريّح حرصاً على مرضاتها وثقة بإخلاصها للعرب والعروبة والإسلام والمسلمين ..

أبعد هذا يقال : «أين هي المؤسسات والمؤتمرات الإسلامية لكي تدافع عن حرمة الحرم الإبراهيمي ؟» . أبدا لاشيء في العالم الإسلامي إلا التّمزيق والشّقاق والتبعية والطّاعة لعدو الله والإنسان باسم الدّين والوطنية .. وإذا ارتفع صوت الحق من مسلم مخلص رجمه العملاء والأدعياء بالتهم الكاذبة ، ورشقوا إيمانه وصفاءه بالبهتان والإفتراء . ولا يزيده ذلك إلا إيماناً وجهاداً ضدّ المزيفين والمضلّلين : « يا أيّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أنّ الله مع المتّقين ــ٢٣ التوبة» .

الدولة الاسلامية لكل الناس

جاء في مجلة المستقبل تاريخ ١٧-٢-١٩٧٩ ص ٧ ما حرفيته : «إن دعوة الخميني إلى دولة إسلامية لاتتناقض فقط مع نظام الشاه ، بل تبرر قيام دولة عنصرية يهودية في فلسطين المحتلة ! .

ويعني هذا المنطق بفحواه أنه لوساغ للراشد المرشد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لساغ أيضاً للضال المضل أن ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ! وأيضاً يعني لوساغ للمصلح أن يبني ويعدل لساغ للمجرم أن يهدم ويفسد !... كل الأفراد والفئات والشعوب المستضعفة في الأرض شرقاً وغرباً هتفت باسم الخميني ، ورفعت أصواتها في الدعوات له والصلوات ، وأطلق من أطلق على مولوده الجديد أو شارع بلده الكبير إسم الخميني ، فهل من أحد يلتزم الصدق يذكر بيغن وديان إلا بما يستحقان ؟ .

ونترك الناس وما يسمون ويهتفون ، ونشير إلى بعض ما قالت توراة اليهود لليهود في معاملة الآخرين ، وما قاله القرآن للمسلمين من التراحم والتعاون مع الناس أجمعين ... لقد أمرت التوراة آل إسرائيل بالقسوة والغلظة والبغي والعدوان ما استطاعوا إليه سبيلاً ، ومن ذلك : «اقتلوا لهلاك

الآخرين ، ولا تعفوا الشّيخ والشّاب والعذراء والطفل والنّساء سفر حزقيال الإصحاح ٩ فقرة »وقد فعلت إسرائيل هذا في فلسطين وزيادة حيث بقرت في دير ياسين بطون الأُمّهات حتّى كان اليهودي يراهن زميله عمّا إذا كان في بطون الحبالى إناث أو ذكور ! .

وقال القرآن للملسلمين : « لاَيَنْهاكُم اللهُ عَنِ الّذينَ لمْ يُقَاتِلوكُمْ في الدّينِ وَيُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أن تَبرُّوهُمْ وتُقسطوُا إليْهِمْ إنّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطينَ–٨الممتحنة ».ومعنى هذا أنّ الإسلاملكلّ الناس، وليس وقفاً على أتباعه بالخصوص ، وأن خيره يمتدّ إلى الذّين لايؤمنون به ما داموا لايشهرون عليه سلاحاً ، ولايوجهون ضدّه عدواناً ، ولايتناولون أتباعه بأذى ،

أبعد هذا يقال : وجود الدّولة القرآنية الإنسانية يبرّر قيام الدّولة الصّهيونية العدوانية ؟ فأين القدر الجامع والقاسم المشترك بين النعيم والجحيم ؟.

دولة الإسلام والمعذّبون في الأرض

لقد حدّد سبحانه رسالة محمد (ص) ودولته بقوله : «ومَا أرْسَلْنَاكَ إلاّ رَحْمةً للْعالمَينَ –١٠٧ الأنبياء ... فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بالْحَقّ وَلا تَتَّبِـعِ الْهَوى – ٢٦ ... كتَابٌ، أنزَلْناه اليَكَ لِتُخْرِجَ النّاس من الظُّلُمَاتِ إلىَ النّور – ابراهيم». وصدع النبي (ص) بأمره تعالى،وأسس دولة السّلام والمحبة والرّحمة والإنسانية ، وانتشلت ملايين المعذبين في الارض من رعايا الإمبراطورية الرّومانية المسيحية والإمبراطورية الفارسية المجوسية،ورحب الكثير منهم بالإسلام والمسلمين ، ليتحرّروا من ظلم القادة وطغيانهم،وينعموا في ظلّ العدل والرّحمة .

هذي هي دولة الإسلام التي يدعو إليها الإمام الخميني ...ولأنّها رحمة للعالمين المسلمين وغير المسلمين يحاربها المستعمرون والصّهاينة وأذنابهم الأدعياء والعملاء .

ولكنّ الإيمان الحق الذي ليس بسلعة «تباع وتشترى وتعار» أقوى من كلّ سلاح ودول الضّلال وأحزابه ... وليست هذه فورة عاطفية ، بل عين الواقع . والشّاهد تاج الشّاه الذي تحصّن بالمال والرجال وأسلحة الدّمار ودول الشرق والغرب ، ومع ذلك تحطم على صخرة دين الخميني وإيمانه وعزم أنصاره وأعوانه في سرعة كأنّها لغز من ألغاز القرن العشرين .

نبوءة صادقة :

وأخيراً هذه النّبوءة الّتي جاءت في الجزء الثاني من كتاب سفينة البحار ص ٤٤٦ طبعة سنة ١٩٣٦ نقلاً عن مصادر مضى عليها العديد من القرون ، وهذا نصها : «يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ قُم يَدْعُو النّاسَ الى الحَقِّ يَجْتَمِعُ مَعَهُ قوم كزُبر الحَديدِ لا تُزِلّهُم العواصِفُ ، ولا يَملّونَ ولا يَجبُنُونَ ، وَعلى الله يَتَوَكّلُونَ . وَالعاقِبَة للمتّقينَ» .

وهذا الوصف أصدق وألصق بالإمام الخميني وقومه حيث أمضى معظم حياته في مدينة قم درساً وتدريساً ، وفيها أعلن الثورة على الشّاه ، ومنها نفي . أما دعوته فهي دعوة الحقّ والعدل التي يستجيب لها كلّ محق ومخلص ، ويرهبها كلّ مبطل وآثم . والله ولي المتقين .

نهضة الحسين (ع)

محطم الطواغيت :

إنّ الإسلام على دعوته الإنسانية ، وتعاليمه السّامية الّتي تسير مع الحياة جنباً إلى جنب لم ينتشر في أنحاء المعمورة ، وتدين به الفرس والروم ،والهند والصين ، وأكثر شعوب الأرض في أمد يسير ويقتلع الفساد من جذوره . ويضع مكانه غرساً جديداً صالحاً ، لم ينتشر الإسلام . ويدخل الناس فيه أفواجاً إلا بعد أن حطم محمد (ص) الطّواغيت بشتّى صورها وأشكالها . وجاهد وصبر وثابر ، حتّى قضى على طاغوت الشّرك والإلحاد ، وطاغوت المال والإقطاع ، وطاغوت العبودية والدّكتاتورية ، وطاغوت الألقاب والأنساب ، وطاغوت التّعصب للجنس واللون ، وطاغوت الفساد والإجرام ، ولم يبق لواحد ، أو لفئة أي مجال للتحكم أو سبيل يعلو به على سواه ، واختط لمن يحكم بعده هذه الخطّة ، وهي خطّة العدل والتّجرد عن الغايات ، والعمل لصالح الجميع . ليضمن لرسالته الحياة والإنتشار والخلود .

معاوية ويزيد :

وتوالت الأحداث بعد محمد (ص) . ودفعت بمعاوية إلى الملك ، أعدى أعداء الإسلام هو وأبوه أبو سفيان وأُمه آكلة الأكباد ، وما استوثق له الأمر .

حتّى تنكر لخطة الرسول الّتي اختطها للحكام ، وحكم الناس بالظّلم والباطل ، والأهواء والأغراض ،واتخذ من الملك سلّماً يعلو به في الأرض. ويعيث فيها فساداً هو وأهل بيته وجلاوزته ، وليمكن لهم هذا العلو والفساد أخذ البيعة بولاية العهد لولده يزيد من وجوه الناس وشيوخ القبائل بعد أن دفع لهم الثّمن من بيت المال . ويحدثنا التاريخ أنّ معاوية أعطى أحد الوجوه ٥٠ ألفاً ليبايع يزيد ، وأعطى آخر ١٠٠ ألف . ولما سأله الأول عن هذه المفاضلة . قال له معاوية : لقد اشتريت دينه . فقال السائل : وأنا بعتك أو أبيعك ديني . فأكملها على المئة .

لماذا نهض الحسين ؟

وما إن جلس يزيد على كرسي الملك ، حتّى أعاد للجاهلية سيرتها الاولى. وحاول أن يحيي الطّواغيت التي قضى عليها محمد ، لا لشيءٍ إلا عداء لمحمد ورسالته. فأعلى من شأن السّفاحين ، وأهل الإجرام والجور ، وقرب إليه المستهترين ، وأهل الفسوق والفجور ، وأفشى السكر والزنا،والظلم والربا. وحكم الأقوياء بالضعفاء،والأغنياء بالفقراء.وحكم النّاس على أنّهم عبيد له من دون الله . وأحدث في الدّين ألف ثلمة وثلمة. ولم يعد يعرف أكثر الناس من الإسلام إلا الإسم ، ومن مبادىء محمد إلا الرّسم ، وكمّت الأفواه الّتي قبض أصحابها من معاوية ثمن البيعة لولده من بعده . وكيف ينطق بالحق من باع دينه للشّيطان ؟

وماذا يصنع الحسين ؟ هل يسكت ، ويدع معول هذا الطّاغية يعمل في الإسلام الّذي أقام صرحه جدّه محمد ، وأبوه عليّ ؟. هل يسكت . وهو ابن عليّ بطل معركة الإسلام ، ومعركة الحق والعدالة ، والذي لايبالي سقط على الموت . أو سقط الموت عليه ؟.

ولكن بمن يحارب يزيد ؟ أبا لأيدي التي بايعته بالأمس وقبضت الثمن من أبيه ؟. فلم يبق –إذن– إلا أن يؤلب الناس على يزيد، وإلا أن يقنع الكبير والصغير بأن جهاده أفضل من جهاد المشركين الذين جاهدهم جده الرسول، وأنه لاحجة لراض عن حكم يزيد وسلطانه ، ولا عذر لساكت عن جوره وطغيانه ، ولكن ما هي الوسيلة التي تحمل الناس على الثورة في أقرب حين ، وتلهب فيهم المشاعر الصادقة ، والعواطف المخلصة ؟ . هل يحملهم عليها بالكلام والخطب ؟ .. إذن يتصدى له ألف خطيب وشاعر ينشد ويعدد فضائل يزيد ، وعظمته . تماماً كما فعل الشعراء والخطباء من قبل ، وكما تفعل صحف اليوم وأصحابها وكتابها .

فلم يبق من وسيلة لحمل الناس على هذه الثورة إلا أن تظهر لهم نوايا يزيد ومقاصده ضد الإسلام وبني الإسلام ، وتتكشف للملأ بالأفعال لا بالأقوال ، ولن تظهر على حقيقتها إلا إذا أقدم يزيد على قتل أهل بيت النبوة ، واستئصال شأفتهم ، حتى الغلمان والرضع .. فنهض عندها الحسين ، وجمع حوله أهل البيت نساءً ورجالاً وأطفالاً ، وفعل بهم يزيد ما لم تره عين ، ولم تسمعه أُذن ، ولم يلحقه وهم ، و عرف القاصي والداني بعد هذه المجزرة مقاصد الامويين بعامة ، ومقاصد يزيد بخاصة .

وتأكيداً لهذه الغاية قام الحسين في اليوم العاشر من المحرم بمظاهر شتى ، منها وقوفه بين الصفين ،وقوله مخاطباً جيش البغي : ويحكم أتطلبوني بقتيل قتلته ، أو مال استهلكته ، فوالله ما على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري ، ومنها وقوفه للصلاة بين الصفين ، والسهام تنهال عليه من كل جانب ، ومنها حمله الولد الرضيع قائلاً : ياقوم إن كنا في زعمكم مذنبين ، فما ذنب هذا الرضيع ،وقد ترونه يتلظى عطشاً ، وهو طفل لا يعرف الغاية،ولم يأت بجناية ، ويلكم اسقوه شربة من ماء ، فقد جفت محالب أُمه .. فرموا الطفل بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد . وهو على صدر أبيه .

النتيجة الحتمية :

وتحققت الغاية من نهضة الحسين واستشهاده ، حيث عمّت الثّورة على يزيد، المملكة الإسلامية بكاملها بعد وقعة كربلاء، ودان بها كلّ مسلم تماماً كما يؤمن بالله واليوم الآخر ، قال العابد الزاهد عبد الله بن حنظلة : « والله ما خرجنا على يزيد، حتّى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء » .وقال الألماني ماربين : » بعد وقعة كربلاء انكشفت سرائر الامويّين ، وظهرت قبائح أعمالهم وانتشر الخلاف على يزيد وبني أُمية ، وكان لا يجرأ إنسان قبل كربلاء أن يجهر بتقديس عليّ والحسين ، وبعدها لم يكن للناس من حديث إلا في فضل العلويين ومحنهم . حتّى في مجلس يزيد كان يذكر الحسين وأباه بالتّقدير والتّعظيم ».

أجل ، لقد حمد الحسين وأبو الحسين ما وجد لفظ للحمد يحمدان به، وذمّ يزيد وأبو يزيد ما بقي للذّم لفظ يذمّان به .

الحسين ويزيد عند الشيعة :

إنّ الحسين عند الشيعة ليس اسماً لشخص ، فحسب ، وإنّما هو رمز عميق الدّلالة ، رمز لبطولة معركة الحقّ والعدالة ، وعنوان للفضيلة والدّين والشّريعة . كما أنّ يزيد رمز الفساد والإلحاد والرّذيلة والإستبداد ، فحيث ما كان الفجور والخلاعة ، والجور والطّغيان ، فثمّ اسم يزيد ، وأعمال يزيد ، وحيث ما كان العدل والفضيلة ، والتّضحية والفداء ، فثمّ اسم الحسين ومبدأ الحسين ، وهذا ما عناه أحد شعراء الشّيعة بقوله :

كأنّ كلّ مكان كربــلاء لدى   عيني وكلّ زمان يوم عاشورا

وبالتّالي ، فإنّ الحسين ما ضحى بنفسه وأهله وعياله إلا ليضع للإنسان قيمته ، ويعرّفه بإنسانيّته ، وأنّها أغلى وأثمن من الحياة ، ومن المال والعيال، وهذا هو سرّ عظمته وخلوده .

الشيعة وذكرى الحسين (ع)

حاولت في كلمتي هذه أن أُجيب عن سؤال وجهه إليّ أكثر من واحد ، وهو يجول في أفكار الكثيرين . وهذا هو :

لماذا يهتم الشّيعة الإماميّة هذا الاهتمام البالغ بذكر الإمام الحسين ، ويعلنون عليه الحداد ، ويقيمون له التّعازي عشرة أيام متوالية من كلّ عام؟! هل الحسين أعظم وأكرم على الله من جدّه محمد وأبيه عليّ (ص). وإذا كان الحسين إماماً فإنّ جدّه خاتم الرّسل والأنبياء ، وأباه سيّد الأئمة والأوصياء؟لماذا لا يحيي الشّيعة ذكرى النّبي والوصي كما يفعلون ويذكرون ولده الشّهيد ؟! .

الجواب : إنّ الشّيعة لا يفضّلون أحداً على الرّسول العظيم . إنّه أشرف الخلق دون استثناء ، ويفضّلون عليّاً على النّاس باستثناء الرّسول. فقد ثبت عندهم أنّ عليّاً قال مفاخراً : « أناخاصف النّعل » أي مصلح حذاء الرسول . وقال : « كنا إذا حمي الوطيس لذنا برسول الله » .أجل، إنّ الشّيعة الإمامية يعتقدون أنّ محمداً لا يوازيه عند الله ملاك مقرّب ، لا نبي مرسل ، وأنّ عليّاً خليفته من بعده ، وخير أهله وأصحابه ، وإقامة

عزاء الحسين في كلّ عام مظهر لهذه العقيدة . وعمل مجسّم لها ، وتتّضح هذه الحقيقة بعد معرفة الأسرار التالية :

١ - تزوّج الرّسول الأعظم . وهو ابن ٢٥ سنة ، وقبض وله ٦٣ ، وبقي بعد خديجة دون زواج سنة واحدة ، ثم تزوّج بعدها الكثيرات ، وجمع في آن واحد بين تسع . وامتدت حياته الزّوجية ٣٧ ، ورزق من خديجة ذكرين : القاسم وعبدالله ، وهما الطيّب والطّاهر ، ماتا صغيرين ، وأربع بنات : زينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة ، أسلمن وتزوّجن وتوفّين في حياته ما عدا فاطمة ، وولدت له مارية القبطية إبراهيم ، واختاره الله ، وهو ابن سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، فانحصر نسل الرّسول بفاطمة وولديها من عليّ الحسن والحسين ، فهم أهله الذين ضمّهم وإياه « كساء » واحد وبيت واحد .

وقد كان هؤلاء الأربعة بعد الرّسول سلوة وعزاء للمسلمين عن فقده ، وإن عظم الخطب . لأنّ البيت الّذي كان يأويه ما زال مأهولاً بمن يحب عامراً بأهله وأبنائه . وماتت فاطمة بعد أبيها بـ ٧٢ يوماً ، فبقي بيت النبي مزيناً ومضيئاً بعليّ والحسن والحسين . ثم قتل عليّ فظل الحسنان . وكان حب المسلمين لهما لا يعادله شيء إلا الحب والإخلاص لنبيّهم الكريم ، لأنَّهما البقية الباقية من نسله وأهل بيته ، وبعد أن ذهب الحسن إلى ربه لم يبق من أهل البيت إلا الحسين ، فتمثلوا جميعاً في شخصه ، فكان حبّ المسمين له حبّاً لأهل البيت أجمعين ، للنّبي وعليّ وفاطمة والحسن والحسين تماماً كما لو كان لك خمسة أولاد . وفقدت منهم أربعة ، وبقي واحد ، فإنّه يأخذ سهم الجميع ، وتوازي منزلته من قلبك منزلتهم مجتمعين . وبهذا نجد تفسير قول سيّدة الطّف زينب ، وهي تندب أخاها الحسين يوم العاشر من المحرَّم : « اليوم مات جدّي رسول الله ، اليوم ماتت أُمي فاطمة ، اليوم قتل أبي عليّ ، اليوم سم أخي الحسن » .

ونجد تفسير ما قاله الإمام الحسين لجيش يزيد حين صمّموا على قتله : « فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم ولا في غيركم ».

وإذا أُقفل بيت الرّسول بقتل ولده الحسين ، ولم يبق من أهله أحد كان ، والحال هذه ، استشهاده استشهاداً لأهل البيت جميعاً ، وإحياء ذكراه إحياءاً لذكرى الجميع .

٢ ـ إنّ وقعة الطف كانت وما زالت أبرز وأظهر مأساة عرفها التّاريخ على الإطلاق ، فلم تكن حرباً وقتالاً بالمعروف للحرب والقتال ، وإنّما كانت مجزرة دامية لآل بيت الرّسول كباراً وصغاراً ، فلقد أحاطت بهم كثرة غاشمة باغية من كلّ جانب ، ومنعوا عنهم الطّعام والشّراب أيّاماً ، وحين أشرف آل رسول الرحمة على الهلاك من الجوع والعطش انهالوا عليهم رمياً بالسّهام ورشقاً بالحجارة وضرباً بالسّيوف وطعناً بالرماح ، وبعد أن سقط الجميع صرعى قطعوا الرؤوس ، ووطؤوا الجثث بحوافر الخيل مقبلين ومدبرين ، وبقروا بطون الأطفال ، وأضرموا النّار في الأخبية على النّساء . إذن فجدير بمن والى وشايع نبيه الأعظم وأهل بيته أن يحزن لحزنهم ، وأن ينسى كلّ فجيعة ورزية إلا ما حل بهم من الرّزايا والفجائع معدّداً مناقبهم ومساوىء أعدائهم ما دام حيّاً .

حين نكث يزيد ثغر الحسين بالقضيب قال له رسول قيصر المسيحي : « إنّ عندنا في بعض الجزائر حافر حمار عيسى (ع) نحج إليه في كلّ عام من الاقطار ونهدي إليه النّذور ونعظّمه كما تعظّمون كتبكم فأشهد أنّكم على باطل » . لقد شاء الله وقدّر أن تكون حادثة كربلاء أعظم وأخلد من كلّ حادثة عرفها التّاريخ ، كما أنّها أفجع وأوجع مأساة مرّت وتمر على وجه الأرض .

٣ ـ إنّ الحسين عند شيعته والعارفين بمقاصده وأهدافه ليس اسماً

لشخص فحسب ، وإنّما هو رمز عميق الدّلالة ، رمز للبطولة والإنسانية والأمل، وعنوان للدّين والشّريعة، وللفداء والتضحية في سبيل الحق والعدالة، كما أنّ يزيد رمز للفساد والإستبداد والتّهتك والرّذيلة، فحيثما كان ويكون الفساد والفوضى وانتهاك الحرمات وإراقة الدّماء البريئة والخلاعة والفجور وسلب الحقوق والطّغيان فثم اسم يزيد وأعمال يزيد ، وحيثما كان ويكون الثّبات والإخلاص والبسالة والفضيلة فثمّ اسم الحسين ومبادىء الحسين ، وهذا ما عناه الشّاعر الشيعي بقوله :

كأنّ كلّ مكان كربلاء لدى   عيني وكلّ زمان يوم عاشورا

فإحياء بطولة الحسين وجهاده ومبدئه إحياء ، للحق والخير والحرّية ، والتّضحية من أجلها بالنّفس والأهل والأصحاب ، واحتجاج صارخ على الحاكم الظّالم وأعوانه،وعلى كل مسرف يعبث بمقدّرات الشّعوب، ويغرق في لهوه وملذاته،وينطلق مع شهواته ومآثمه كيزيد وأعوان يزيد .

أراد ابن معاوية من التنكيل بأهل البيت أن يطفىء نور الله ، وأن تكون الكلمة العليا للفساد والإستبداد ، وظنّ أنّه انتصر وتمّ له ما أراد بقتل الحسين ، ولكنّ انتصاره كان زائفاً وإلى أمد ، فسرعان ما زالت دولة الأُمويين ، وظلّت ذكريات كربلاء ومبادىء الحسين حيّة إلى يوم يبعثون ، وقد جابهت السّيدة زينب يزيد بهذه الحقيقة حيث قالت من كلام تخاطبه فيه :

« أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السّماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأُسارى أنّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة.. فمهلاً مهلاً .. فوالله ما فريت إلا جلدك ، وما حززت إلا لحمك .. ولأن اتخذتنا مغنماً لتجدنّ وشيكاً مغرماً حين لا تجد إلا ما قدّمت يداك .. فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت

وحينا ، ولا يرحض عنك عارها ، وهل رأيك إلا فند ، وأيّامك إلا عدد ، وجمعك إلا بدد ؟! » .

وصدقت نبوءة السّيدة العظيمة ، فقد سقط يزيد وخلفاء يزيد الواحد بعد الآخر ، وانهارت دولة الأُمويين بعد مصرع الحسين بنصف قرن . وظلّ المسلمون يلعنون يزيد ، ويحتفلون بذكرى الإمام الشّهيد ، يحتفلون يوم مقتله ويوم مولده من كلّ سنة . فهذه مصر تحتشد فيها الحشود وتنصب السّرادقات ، وترتفع دقّات الدّفوف وإيقاع الطّبول ، وتمتلىء بالبهجة أصوات المطربين والمنشدين لمولد الإمام الحسين ومولد أُخته بطلة كربلاء. فليس الشّيعة وحدهم يهتمّون ويحتفلون بذكرى الحسين ، بل المسلمون عجماً وعرباً في كل مكان ، وإذا اختلفت الأساليب ، وتعدّدت المظاهر فالجوهر واحد . قرأت في العدد الثاني من مجلّة « الغد » المصرية ، تاريخ فبراير سنة ۱۹٥۹ كلمة بعنوان « مولد السّيدة وأعياد الأُمّة العربية » جاء فيها :

« خلال أعظم معركة في سبيل العقيدة ، شهدها التاريخ القديم لأُمة العرب ، برزت شخصية السّيدة زينب « رئيسة الدّيوان » كما نسمّيها نحن أبناء مصر . بطلة باسلة مؤمنة شجاعة . حتى أنّ يزيد بن معاوية الأفّاق ، لم يجرأ على مناقشتها عندما ساقوها إليه ، ورفضت أن تبايعه ، ولعنته كما لعنت كلّ الذين يغدرون ويطعنون المؤمنين في ظهورهم ! من أجل ذلك نحن في مصر وفي كلّ الوطن العربي نؤمن ببطولة السّيدة زينب ، كما نؤمن بذاك البطل الخالد « الحسين بن علي » أبي الشّهداء جميعاً .. نؤمن بأمثال هؤلاء العظام ونحتفل بمولدهم ، ونرقص ونغنّي ونطرب وننشد الأغاني حول أضرحتهم ، وذلك لأنّنا نحبّهم ، ولا أحد يستطيع أن يزيل من قلوبنا الحبّ الصّادق لقائد البطولة الخارقة .. وقد نحيا ونمتلىء بالأمل فنعمل ونكافح لأنّ مثل هذا الرمز يضيء لنا الطّريق ويشحننا بالرّغبات الطيّبة

والإيمان بالشّرف .. ونحن لا نبالغ إذا اعتبرنا مولد السّيدة زينب ومولد الحسين من الأعياد القومية لأُمّة العرب » .

لقد نظر هذا الكاتب بعين الواقع . ونطق بلسان الحق ، فإنّ ظروفنا الماضية والحاضرة تجعل هذه الأعياد أمراً لا مفرّ منه ، إنّها تذكرنا بالبطولة والنّضال من أجل الحرّية ، مثلنا الأعلى ، وتدفع بنا إلى البحث والتّنقيب عن الحاكم المثالي الذي يعمل لوطنه وأمّته . لقد مضى على قتل الحسين ١٣١٨ ، وما زال الشّيعة يتذكرون ويذكرون هذا الماضي البعيد ، ويمجدونه ، ليستخلصوا منه الثّورة على الظّلم . نحن الشّيعة ثوريّون بعقيدتنا وتعاليمنا نتفاعل بالثّورات التحررية ، ونستبشر الخير بها ، ونحس بعطف عميق نحوها ونحو شهدائها ، فإذا كرّمنا الحسين فإنّما نكرّمه بصفته الباعث الأكبر للثّورات ، والمعلّم الأول للثّائرين من أجل الحق . نحن لا نعبد الأفراد ، بل نقدّس المبادىء لأننا مسلمون وقبل كلّ شيء ، والحسين يمثل مبادىء جدّه الرّسول خير تمثيل ، ومن أجلها قتل هو وأهله وأصحابه . وسبيت نساؤه وأطفاله ، ومن أجلها يفرح المسلمون السّنة يوم مولد الحسين . فيصفّقون ويغنّون ويرقصون ، لأنّه اليوم الذي ابتهج فيه نبي الرحمة والعدالة . ويحزن المسلمون الشّيعة يوم قتله ، فيبكون ويندبون ويلبسون ثوب الحداد لأنّه يوم حزن وكآبة عليه وعلى جميع المسلمين ، وينشدون مع الشّريف الرّضي :

لو رسول الله يحيا بعده قعد اليوم عليه للعـزا

يفرح أولئك بالمولد . ويحزن هؤلاء للمقتل ، وهدف الجميع واحد ، هو الطّاعة والولاء والتّقرب من خاتم الأنبياء . وكلاً وعد الله الحسنى .

الاستعمار والحضارة

وجه المارشال تيتو رسالة إلى الشعب اليوغسلافي بمناسبة العام الجديد ١٩٥٦ ، جاء فيها : « إنّ الناس تعوّدوا سماع الحديث عن الدّور الذي تلعبه الدّول الإستعمارية في نشر الحضارة ، ولكنّ الفرصة سنحت لي في هذه الأيام للاقتناع بأن العكس هو الصّحيح » .

رأى البعض أنّ لدى دول الإستعمار مصانع ومصارف وشركات وأساطيل وأفلاماً ومسارح وصحفاً ودوراً للنشر وجامعات ، رأى هذه وما إليها فتخيّل أنّ الإستعمار يحمل فوائدها إلى الشّعوب المستعمرة ، فقال : إنّ الإستعمار يلعب دوراً في نشر الحضارة ، وحمد الله وأثنى على هذه النعمة ! . أما المارشال تيتو فرأى أنّ الدّول الإستعمارية تنشىء المصانع والمصارف والشركات للإستغلال والإستثمار ، وتبني الأساطيل لاحتكار الأسواق والمواد الخام والسّيطرة على القواعد وبسط النّفوذ بالقوّة ، وتخترع الذّرة لإشاعة الخوف والذّعر ، وتعرض أفلام الجرائم والتّضليل لتخدّر العقول وتفسد النّفوس ، وتؤسس الجامعات لتغذّي النزعة الفردية ، والتّفرقة العنصرية ، وتشرّع القوانين لتنكر حقّ الشعوب في تقرير مصيرها ولتعاقب كلّ من يعارض الإستعمار بالقتل أو النفي أو السّجن ، لذلك كلّه آمن المارشال تيتو ، واقتنع بأنّ العكس هو الصحيح .

ليس الإستعمار كذباً ورياءً وتضليلاً وجهلاً وفقراً فقط ، إنّه التّخريب والتّدمير بالجملة ، إنّه الموت الأكبر ، والفناء الشّامل ، إنّ جريمته لا تعدلها كلّ الجرائم مجتمعة .

لقد شهد العالم القديم استعمار الأكاسرة والقياصرة ، ولكن لم ينقل لنا التاريخ ما نقله عن آثار الإستعمار في الهند من أنّه في « الرّبع الأخير من القرن التاسع عشر حصلت ١٨ مجاعة مات فيها ٢٦ مليون هندي من الجوع ، وفي القرن العشرين اتسعت المجاعة حتّى مات في عام ١٩٤٣ ثلاثة ملايين ونصف من الهنود » وتظاهر الجياع مرّة في الهند ، في مدينة أمرتسار ، ويقرب عددهم من ٦٠٠٠ فأطلق الجنود الإنكليز عليهم النّار بأمر الجنرال داير . فقتل منهم في مدّة عشر دقائق ٢٧٩ شخصاً ، وجرح ما يقرب من ٩٠٠ ، هذا شاهد واحد من ألوف الشّواهد التي تقع في الشّعوب المستعمرة ، وما قاله نهرو عن الهند « إنّ السّيطرة الإستعمارية جعلت الهند عاقراً جدباء ، وخنقت فيها الحياة » ينطبق على كلّ مكان فيه شائبة الإستعمار . وهذه صورة من آثار الإستعمار البريطاني .

نقلها الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه — عشرة أيام في السّودان ، قال في صفحة ٤٨ طبعة ٩٢٧ : « رأيت في الخرطوم امرأتين كل واحدة منهما عارية أو تكاد فلا يسترها إلا خلق قذر يغطي بعض أسفلها ، ويترك الظهر كلّه والأذرع والرّأس مكشوفة للشّمس والهواء ، وكانت كلّ واحدة مقعية كما يقعي الكلب ، وتنبش الأرض بأظافرها ، وقد أحدثت فيها فجوة كبرى ، وهي ما تزال دائبة تنبش ، وتلقي ما بين حين وحين شيئاً من التراب الذي يعلق بأظفارها وبيديها في غربال أو منخل إلى جانبها .

سألت صاحبي ما بال هؤلاء النّسوة أكببن على الثّرى يحتفرنه بأظافرهن كما يحتفر الحيوان وجاره بمخلبه . قال صاحبي ، وفي نبرات صوته رنّة همّ وشجن : فقيرات لم يجدن قوتاً ، وقد تعول واحدتهم طفلاً أو أكثر ،

وقد أقبلن يحتفرن التراب آملات أن يجدن فيه حبّة من ذرة أو شعير مما قد ينتثر ساعة حمل الغلال إلى المخازن ، فإذا ظفرت إحداهن بما حسبته حبة ألقت به في غربالها ، وقد تظل كذلك يومها تحتفر القوت ، من تراب الأرض احتفاراً ، فإذا خيّل إليها أنّها قد اجتمع في غربالها بعض منه عملت لتنظيفه علّ فيه ما يقيمها ويقيم من تعول من طفل أو يتيمة يوماً أو بعض يوم ، وهنّ كذلك يفعلن ما أعانهنّ القدر ، فإذا أمطرت الدّنيا أو انقضى موسم الغلال فلهنّ ولمن يعلن البؤس والويل .

ثم قال : ذلك منظر دونه كلّ ما رأيت من مناظر الفاقة والبؤس . دونه هاتيك المتسوّلات يرتجين عطف كريم .

ونشرت جريدة أخبار اليوم المصرية في عدد ٢٢ – ١٠ – ٥٥ ما يلي :

والنزاع القائم في كينيا واضح المعالم ظاهر وجه الحق فيه إلا للمغرضين. فقد صدر أمر ملكي في عام ١٩١٥ حول ملكية جميع الأراضي في كينيا إلى العرش البريطاني ، وأباح لحاكم كينيا أن يؤجر منها ولمدة ٩٩ سنة لمن يشاء.. وبغير حساب . فكان من جرّاء ذلك أن احتفظ الحاكم بستة عشر ألف ميل مربع لألفي نازح أوروبي ، أي بنسبة ثمانية أميال مربعة لكل أوروبي . بينما احتفظ بخمسين ألف ميل مربع لخمسة ملايين ونصف أفريقي ، أي أن الفرد الافريقي يخصه أقل من واحد في المائة من الميل المربع ، وبعبارة أُخرى أن نصيب الأوروبي يساوي نصيب ثمانمائة وثمانين أفريقياً ، في حين أن الافريقي هو صاحب الأرض الأصلية ، بينما الأوروبي متطفل جاء يأخذ اللقمة من فم صاحبها .

إنّ الدولة التي لعبت دوراً في نشر الحضارة شرقاً وغرباً هي الدولة العربية الإسلامية ، فقد امتد نفوذها وسلطانها إلى ما وراء البحار ، وتوغل

المسلمون في فارس والهند وروسيا والصين وأسبانيا وإيطاليا وفرنسا والسّويد وغيرها ، وكانوا يحملون معهم أينما اتجهوا الرّسالة الإسلاميّة ، العلم والعدل يبنون الجامعات والعيادات ويشجعون الصناعة والزراعة والتّجارة، ويقضون على استبداد الأفراد والطّبقات ، فانتعشت الشعوب الضّعيفة التي وصلوا إليها ، وازدهرت فيها الحياة وساند أهلها الحكومات ، ونبغ فيها علماء كانوا وما زالوا أساتذة وأئمة للعرب الفاتحين ، وجميع المسلمين ، أئمة للعرب في لغتهم وآدابهم ودينهم وشريعتهم ، ومنهم من اتخذت آراؤه ومؤلفاته أساساً للنّهضة العلمية الحديثة . ونواة لكثير من الإكتشافات التي اهتدى إليها الغربيّون في هذا العهد .

أرسل الله محمداً رحمة للعالمين كافة ، وجعله حجة على العرب والعجم بيّن الحق لأصحابه على أن يؤدّوا عنه لسائر الأُمم «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ١٤٣ — البقرة » لم يرد المسلمون بتأسيس دولتهم ، وامتداد سلطانهم ، الإستغلال والنّهب ، وإنّما أرادوا إقامة العدل ، وتساوي الأُمم والشّعوب في الحقوق ، وتوفير الأمن وطيب العيش للنّاس أجمعين . كان النّبي (ص) إذا أرسل عمّاله إلى البلدان يقول لهم : « يسّروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تنفّروا .. خذوا من الأغنياء وردوا على الفقراء ، واتقوا دعوة المظلوم ، فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب ».

وولّى رجلاً جباية الصّدقات ، فلما رجع إلى النّبي قال الجابي : هذا لكم ، وهذا هدية أُهديت لي . فقال له الرسول : « هلاّ جلست في بيت أبيك وبيت أُمّك حتى تأتيك هديّتك إن كنت صادقاً » .

وأثّرت تعاليم النّبي في نفوس المسلمين ، واتخذوها ديناً وعقيدة مقدّسة ، فشدّد عمر على عمّاله ، وصادر أموالهم ، وكان الإمام علي

يكتب إلى من يولي عليهم عاملاً اسمعوا له وأطيعوا فيما طابق الحق ، وقيل له : إنّ عامله على البصرة أجاب دعوة بعض أهلها إلى وليمة ، فكتب إليه يوبّخه ، وبلّغه أنّ عامله المنذر بن الجارود قد خان في بعض أعماله ، فكتب إليه « لئن كان ما بلغني عنك حقّاً لجمل أهلك وشسع نعلك خير منك » ، والجمل يضرب به المثل في الذّلة والجهل . وقد تمشّى على هذه السيرة كثير من الخلفاء ، فكانوا لأقل ارتياب في أمانة العامل والموظّف يصادرون أملاكه ، وينزلون به العقاب الصارم .

كانت الشريعة الإسلامية هي الدستور الوحيد للإمبراطورية العربية تطبقها في الشعب العربي وفي الشّعوب الأُخرى لا فرق بين قريب وبعيد ، فلا تحلّل للعرب ما تحرمه على غيرهم ، لأنّها شرعت من أجل الإنسان من حيث هو إنسان لا من أجل طبقة خاصّة أو شعب أو جنس خاص ، لذا أثنى الغربيون المنصفون على العرب وحكمهم ، ولهذا السّبب أيضاً تضافرت على الإسلام والمسلمين قوى الإستعمار والإستغلال ، وجموع التبشير ، وقد صمد المسلمون لهذه القوى ، وهم عزّل إلا من الحق والإيمان به .

وبالتالي فإذا تأخرنا الآن عن ركب الصّناعة والإختراعات الحديثة فإنّا نعلم جيّداً أنّا سبقنا الغرب إلى الإختراع والإكتشاف ، وأنّا ساهمنا بأوفر قسط في تقدّم الحضارة وازدهار الحياة ، وهانحن سائرون في هذه الطّريق ، وسنبلغ الهدف بحول الله ، وإذا وقف الإستعمار في الماضي حجر عثرة بيننا وبين ما نريد فإنه اليوم يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وعمّا قريب لا يبقى له عين ولا أثر .

الشريعة الحقة*

والتحدي بالنفس والأهل

يحسب الكثيرون أنّ هذا اليوم عيد ديني يخصّ المسلمين وحدهم ، تماماً كعيد الفطر .

إنّ هذا المنطق أشبه بقول من قال : إنّ مسألة العلم والعدل والمساواة مسألة طائفية بحتة تخصّ فئة دون فئة ، ومجتمعاً دون مجتمع .

ولو احتاج هذا العيد إلى دليل يبرّره لاحتاج العلم والإنسانية إلى دليل يبرّرهما .

لقد رفع محمد راية العلم ، وأعلن للأجيال في شرق الأرض وغربها « يَرْفَعُ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ المجادلة ١١ » . أعلى محمد من شأن العلم ، ودعا إليه كما دعا إلى الإيمان بالله ، لأنّ دينه هو دين الحياة ، ولا حياة بلا علم .. فأيّة عدّة من معدّات هذا

---

* تليت يوم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي اقيم في قريــة عثرون (من قرى جبل عامل) .

العلم الحديث تسخر الطّبيعة لغايات الإنسان وسدّ حاجاته ، وتحقّق له الإكتفاء والأمن والرّفاهية فهي من دين محمد في الصميم .. « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّمَوَاتِ ومَا في الأَرْضِ وَاسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً — لقمان ٢٠ » .

والنّعم الباطنة هي التي يكتشفها الخبراء ثم يحوّلونها لخدمة الإنسان ومنفعته .. وهكذا نرى أنّ العلم الّذي دعا إليه محمد وحثّ عليه هو مطلب البشرية كلّها، والوسيلة إلى سعادتها أفراداً وجماعات في كلّ مصر وزمان فحري — إذن — بكلّ إنسان في كلّ مكان حتى من لا يؤمن بالله وأنبيائه أن يحتفل بمحمد ومولد محمد ، لأنّه احتفال بالحياة وأسبابها وحضارتها وتقدّمها .. وفي اعتقادي أنّ الناس كلّ النّاس يلتقون مع رسالة محمد من حيث يشعرون أو لا يشعرون إلا الذين يريدون علواً في الأرض وفساداً .

وهل وقفت رسالة محمد على الإعلاء من شأن العلم والعلماء ، وكفى ؟ لقد ذكر الباحثون ألواناً من المعجزات لنبيّ الرّحمة ، وأهمّها جميعاً — فيما أرى — معجزتان : شريعة عالمية سماوية . أساسها المحبة والتّعاون . وهدفها سعادة الجميع ، لا وزن في مقاييسها إلاّ للتّقوى والإيمان والإخلاص وإلا للعرق والكدح والتّضحية .. الكلّ من آدم ، وآدم من تراب . فالكلّ من تراب ، رهن بما كسبت يداه .. والكلّ في حمى الله وحصانته يرتبط حقّه بحق خالقه إلا من انتهك حرمة نفسه بالإعتداء على حقّ غيره : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلُّهُ لله فانِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إلاّ عَلَى الظّالِمِينَ — البقرة ١٣٩ » .

شريعة نزعت التّيجان عن رؤوس الملوك والجبابرة وألقتها تحت أقدام رعاة الإبل: وتحت عروش الظّلم والطّغيان ، وحطّمت أحزاب الإقطاع والإستغلال، وردّت للبائسين والمستعبدين إنسانيتهم وكرامتهم : « وَنُرِيدُ

أنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ — القصص ٥ ».

شريعة سبقت الشرائع كلّها إلى وضع الأساس لإقامة العدل الإجتماعي الشامل ، حتى مخالفيها تحترم فيهم حقوق الإنسانيّة وقداستها ، وتنظّم علاقات النّاس في الإجتماع والإقتصاد والسّياسة على أساس العدل والتعاون والقيم الأخلاقية .. وليست القيم والمثل العليا في الإسلام مواعظ ونصائح. بل حقائق ملموسة تستهدف صالح الأفراد والجماعة ، فلا يذوب الفرد في المجتمع . ولا يطغى الفرد على المجتمع . بل تبلغ بكلّ منهما الكمال والوفاء بجميع أغراضه وأهدافه في كلّ زمان ومكان .

ويكفيك دليلاً على هذه الحقيقة أن تعلم بأنّ هذه الشّريعة لا تنحصر فيما دوّنه الفقهاء في كتب الفقه على المذاهب الخمسة . بل ولا على المذاهب الثمانية .. كيف وهي تصدر عن العقل ؟وتعتمد عليه . وإذا كان العقل لا ينضب معينه فهذه الشّريعة التي تصدر عنه لا ينضب معينها ولا يجف ماؤها .. ومن هنا كان محمد خاتم النبيّين وشريعته خاتمة الشّرائع .

هذه الشّريعة العالمية هي المعجزة الأُولى والعظمى لمحمد. وقد تنبّه لها . وأحسن التّفهم لآثارها ونتائجها المفكرون والمنصفون من المسلمين وغير المسلمين .

أما المعجزة الثانية فلم تحظ بالعناية والإهتمام الذي تستحقه من الباحثين . مع أنّها الدّليل الحاسم على أنّ هذه الشّريعة ليست من صنع الأرض وأهل الأرض . وإنّما هي من صنع حكيم عليم أنزلها على نبيّ كريم وشرّعها لصلاح الإنسان الذي قال له كن فكان ..

وبديهة أن صانع الشّيء أيّ شيء هو أعلم . بما يصلحه وما يفسده.

وقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، ثم وضع له نظاماً يتلاءم مع وضع وطبعه روحاً وجسداً ، وأبلغه بلسان نبيه للناس كافّة ، وعزّزه بدليل حاسم جازم على أمانته وصدقه .. وهذا الدّليل هو المعجزة الثانية التي أشرنا إليها وهذي هي حكايتها :

جاء إلى النّبي الكريم وفد من نجران يسألونه الدّليل على نبوّته، وصدقه في رسالته وشريعته فجادلهم بالّتي هي أحسن ،وناداهم في رفق أنْ صدّقوا بالحق ، ولما أبوا الإذعان له ، وأصرّوا على العناد جاء النبي بعترته وأهل بيته ، وأحب الخلق لديه ، وأقربهم إليه رجالاً ونساءً وأطفالاً . جاء بعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وتقدّم بهم إلى السّاحة ، وجثا على ركبتيه. وصرخ بأعضاء الوفد صرخة رهيبة مدوّية : « تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكاذِبِينَ ـ آل عمران ٦١ » .

هذا هو الدّليل الحاسم ، والحد الفاصل الذي يضع المعاند أمام الإعجاز وجهاً لوجه .. إعجاز ينزل من السّماء بكلمة تخرج من فم محمد وآل بيت محمد ، لا من مختبرات العلم ومصانع العلماء . إعجاز يملأ الأرض ناراً على الكاذبين والمبطلين بنظرة إلى السّماء من نظرات محمد وآل بيت محمد. لا من تفتيت الذّرة ، ولا الصّواريخ الموجهة ، إعجاز لا مصدر له إلا قـوّة إلهية تغضب لغضب محمد وآل بيت محمد ، وترضى لرضا محمد وآل بيت محمد عليّ وفاطمة والحسن والحسين .

ولما رأى الوفد أنّ العذاب نازل بهم لا محالة إذا استنزله الرّسول الأعظم أقرّوا بالخزي والخذلان ، وقال سيّدهم : إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل الجبال من مكانها لأزالها . وجوهاً هي وجه محمد ووجه علي وفاطمة ووجه الحسن ووجه الحسين ، وجوهاً تزيل الكون بكامله ، لا الجبال وحدها .

وهل بعد هذا الإعجاز من برهان ؟ وهل من شك بعد أن قدّم محمد أولاده وخواص أهله على استنزال العذاب الذي لا محالة من نزوله لو أصرّ المعاندون على عنادهم ؟ وهل يقدم محمد على هذا إذا لم يكن على يقين من إرادة الله ؟.. وكيف يُعرّض نفسه للخزي والفضيحة التي أصابت وفد نجران ؟ .

إنّ هذا التّحدي الخطير بالنّفس والأهل لا مثيل له أبداً في تاريخ الأنبياء ولا في تاريخ البشرية على الإطلاق . وقد بلغ من الدّلالة على نبوّة محمد ما يفوق جميع الأدلة ووسائل المعرفة ..إنّه أصدق وأوضح من دلالة نور الشمس على وجود الشمس .. وأنّى للشّمس ونور الشّمس من نور محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين الذي هو نور الله بالذّات .

أبو طالب وآيتان من القرآن الكريم

آي الذكر الحكيم :

تكلّم النّاس كثيراً حول إسلام أبي طالب عمّ النّبي (ص) . واختلفت فيه الأقوال . ووضعت فيه الكتب قديماً وحديثاً . وأُثير هذا الموضوع على صفحات مجلّة العربي في العدد ١٠٨ و ١١٠ .

واستدلّ القائلون بإسلامه بما لاقاه في سبيل الرّسول الأعظم (ص) من سراة قومه وصناديدهم . وبأقواله في مدح الرّسول شعراً أو نثراً . أما القائلون بأنّه مات على الشّرك فقد استدلّوا بروايات تقول : إنّ آيتين من آي الذكر الحكيم نزلتا في شأن أبي طالب . وهما الآية ١١٣ والآية ١١٤ من سورة التّوبة . وهذا نصّهما :

«ما كانَ للنّبيّ والّذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُربى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمْ أنّهُمْ أصْحَابُ الجحيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ ابْرَاهِيمَ لأبِيهِ إلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيّاهُ فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ أنّهُ عَدُوّ الله تَبَرّأ مِنْهُ إنّ إبْرَاهِيمَ لأوّاهٌ حَلِيمٌ » .

وحين بلغت في التّفسير الكاشف هاتين الآيتين تتبّعت الرّوايات والأقوال في صفحات الماضي والحاضر حول السّبب لنزول الآيتين فخرجت بأنّ الرّواة والمفسّرين افترقوا في سبب نزول الآيتين إلى ثلاثة أقوال.

القول الأول :

إنّ جماعة المؤمنين قالوا : نستغفر لموتانا المشركين . كما استغفر إبراهيم (ع) لأبيه . فنزلت الآيتان . ذكر هذا القول الطبريّ والرّازي وأبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط. وصاحب تفسير المنار وغيرهم . وهذا القول أرجح من القولين الآخرين . لأنّ في الآيتين كلمات تشعر به . منها قوله تعالى : « والّذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكينَ وَلَوْ كَانُوا أُولي قُرْبَى) فنهي المؤمنين عن الإستغفار لأقربائهم المشركين يشعر بأنّهم كانوا يستغفرون لهم . أو حاولوا ذلك ومنها قوله: (وَمَا كانَ اسْتِغْفَارُ ابْرَاهِيمَ لأبِيهِ) فانّه يحسن جواباً عن قول المؤمنين . كما استغفر إبراهيم لأبيه .

القول الثاني :

إنّ النّبي (ص) أتى قبر أُمه . وبكى عنده ، واستأذن ربّه أن يستغفر لها ، فنزلت الآيتان . ذكر هذا القول الذين نقلنا عنهم القول الأول. وهذا القول أي أنّ الآيتين نزلتا حين بكى النّبي عند قبر أُمه أرجح من القول أنّهما نزلتا حين وفاة عمه أبي طالب . لأنّ أبا طالب مات في مكة عام الحزن أي قبل الهجرة بثلاث سنوات. وسورة التّوبة الّتي جاء فيها الآيتان نزلت بالمدينة سنة تسع للهجرة أي بعد وفاة أبي طالب بحوالي ١٢ سنة .

القول الثالث :

إنّ الآيتين نزلتا في أبي طالب بدعوى أنّ النّبي قال لعمه أبي طالب، وهو يحتضر : أي عم قل لا إله إلا الله . فاقتنع ... فقال النّبي : لأستغفرنّ الله لك ما لم انه عنك .

ورد هذا القول جماعة من العلماء أولاً بأنّ الآيتين – كما أشرنا نزلتا بعد وفاة أبي طالب . ثانياً بأنّ أبا طالب مات بعد أن أسلم وأخلص في إسلامه (أُنظر الغدير للأميني ج٧ ص ٣٦٩ وما بعدها طبعة سنة ١٩٦٧).

طبيعة الحال :

ولو صرفنا النّظر عن أقوال المفسّرين والرّواة . وعلّلنا عقيدة أبي طالب تعليلاً يستمد مقوماته من طبيعة الحال ، لو فعلنا ذلك لجاءت النّتيجة أنّ أبا طالب كان يؤمن بصدق محمد (ص) في جميع أقواله وهذا هو الإسلام بالذّات .

نشأ النّبي (ص) يتيم الأبوين ... مات أبوه ، وهو حمل ، وقيل : كان في المهد فكفله جدّه عبد المطلب ، وماتت أُمه ، وله من العمر ست سنوات ، وبقي في كنف جدّه ثماني سنوات ، ولما حضرته الوفاة أوكل أمر حفيده إلى عمّه أبي طالب ، ولم يكن طالب أكبر أولاد عبد المطلب ، ولا أكثرهم مالاً ، وإنّما كان أعظم إخوته قدراً ، وأكرمهم خلقاً ، وأنداهم يداً ، فقام أبو طالب برعايته أحسن قيام ، وأحبه حبّاً شديداً ، وآثره على نفسه وأولاده ، ونظم في مدحه القصائد الطّوال والقصار ، وكان يتبرّك به ، ويلجأ إليه في الملمّات لما ظهر على يده من الكرامات .

فعن ابن عساكر أنّ أهل مكة قحطوا ، فخرج أبو طالب ، ومعه محمد ، وهو غلام . فاستسقى بوجهه ، فأغدقت السّماء وأخصبت الأرض فقال أبوطالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ما هو السر ؟

وإذا كان أبو طالب يحب محمداً ، ويؤثره على نفسه ، ويستميت في نصرته . ويثق بصدقه واستقامته ، وقد رأى ما رأى من كراماته قبل النبوّة وبعدها ، إذا كان ذلك كلّه فلماذا – يا ترى – يؤمن بنبوّته ؟. فإن صح الزّعم بأنّ أبا طالب غير مسلم فينبغي أن يكون هناك سرّ قد منعه من الإسلام ... وما هو هذا السر ؟ هل رأى أبو طالب من محمد ، وهو يعرف سره وحقيقته ، هل رأى منه ما يتنافى مع النبوّة ؟ حاشا خاتم النّبيين وسيّد المرسلين ، ومن ادعى هذا فما هو من الإسلام في شيء ... ثم كيف استطاع محمد (ص) أن يقنع رعاة الإبل بنبوّته ، ومن لا يعرف عنه شيئاً من قبل، وعجز عن إقناع عمّه أبي طالب الذي يعرف مصدره ومخبره ؟. هل كان أبو طالب أقل ذكاء من أعراب البادية ، أو كان في نفسه هوىً يمنعه من الإسلام ، كما منع أصحاب الأغراض والأهواء ؟.

والهوى الذي يمنع أبا طالب من اعتناق الإسلام – على فرض وجوده – لا يخلو أن يكون واحداً من اثنين : إما الخوف على ماله وثروته ،والمفروض أن أبا طالب عاش فقيراً ، ومات فقيراً ، وإما الخوف أن تذهب الرئاسة من بيت هاشم إلى غيره ، والمفروض العكس .. وإذا انتفى هذا وذاك

انتفى المانع من إسلام أبي طالب ، وإذا أعطفنا انتفاء المانع على وجود المقتضي لإسلامه ، وهو حبّه لمحمد وعلمه بحقيقته كـانت النتيجة أنّ أبا طالب من السّابقين إلى الإسلام ، لا من المسلمين فحسب .

وإذا بطل القول بأنّ الآيتين نزلتا في أبي طالب ، ولم تثبت صحة الرّواية بأنّهما نزلتا في أم النّبي (ص) تعيّن القول الأول أي أنّهما نزلتا في قوم من المؤمنين كانوا يستغفرون أو يحاولون الإستغفار لموتاهم المشركين . وظاهر الآيتين صريح في ذلك .

أبو ذر

ماكان أبو ذر نبيّاً من الأنبياء . ولا قائداً من قادة الحرب ،ولا من الرؤساء الأُمراء. أو المؤلّفين والشّعراء ، أو من أصحاب الأموال والأطيان .. فكل ما حازه في دنياه كان كوزاً وعكازاً .. ولكنّه كان جريئاً في الحقّ . ومخلصاً له ، يجهر به بعزم وصلابة ، ولا يسكته عنه خوف أو سيف . ولا يساوم عليه بثمن بالغاً ما بلغ .

وبكلمة : كان صادق الإيمان وكفى ..

وقد يقال : إنّه نموذج أعلى للإيمان ، لا لمجرّد نوعه وحقيقته فحسب. ونحن لا نشك في ذلك ، ومع هذا نقول : إنّ الإيمان لا يتجزأ ، وأنّ من أطاع الله في بعض ، وعصاه في بعض فقد أشرك الشيطان في طاعة الله ... ولو أنّ قلبه عمر بالتقوى والإيمان لما وجد الشّيطان إليه سبيلاً .

وسرّ العظمة في أبي ذر يكمن في أنّه ما قصد شيئاً من مواقفه كلّها إلاّ وجه الله ، ولو أنّه قصد سواه في موقف واحد فقط ما كان وجيهاً عند الله والناس ، بل كان واحداً منهم كسائر الآحاد ، وبهذا يتبيّن معنا أنّ الشمول والعموم في طاعة الله هو من قوام الإيمان ، وأنّ من تعدّى

حدّاً واحداً من حدود الله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً « إلاّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ – ٧٠ الفرقان»

ثورة أبي ذر على الأغنياء :

أما اهتمام أبي ذر بالنّاحية الإقتصادية وثورته على الأغنياء والمترفين فسببها واضح ومعلوم عند الجميع ، وهو أنّ عثمان انحرف عن سنّة الرسول . وخالف شريعة الإسلام ، واستأثر هو وذووه بأموال المسلمين ، فامتلكوا بها القصور والمزارع ، والرّياش والخيول ، والعبيد والإماء ، ومن حولهم ملايين الجياع والمعدمين .

وإذن فثورة أبي ذر على الأغنياء كانت بدافع من حبّ العدل والإصلاح . وباعث من دينه وإيمانه بسنة الرّسول (ص) وتعاليم الإسلام ، وبقصد الحرص والمحافظة على حقوق المستضعفين وتقسيم الفيء بالسّوية على الجميع ، لا بدافع من إيمانه بالإشتراكية وإلغاء الملكية . وقد آمن بذلك عمّار بن ياسر كما جاهر أبو ذر ، ثم الصّحابة وعامّة المسلمين ، ثم تراكم الاستياء الذي أدّى إلى مقتل عثمان ، ولكنّ أبا ذر أُوذي في سبيل ذلك إيذاءً كثيراً حتّى نفاه عثمان إلى الشام ، ثم إلى صحراء الرّبذة ، ولو كان أبو ذر اشتراكياً لثار على عمر بن الخطاب الذي قسّم الأموال بالتّفاوت ، وميّز بين الفئات والأفراد .

كان أبو ذر يأمر بالمعروف ، ويقول : أوصاني خليلي رسول الله (ص) أن أقول الحقّ ولو كان مرّاً ، ولا أخشى في الله لومة لائم ، وأعوذ بالله من الجبن .. يامعشر الأغنياء اجعلوا في أموالكم حقّاً للسائل والمحروم .. يا معشر الأغنياء قال رسول الله : ما ملأ آدمي وعاءً شرّاً من بطنه ، حسبه لقيمات يقيم بها صلبه .. وهذه هي دعوة القرآن بالذات : « وفي أمْوَالِهِمْ

حَقٌّ مَعْلُومٌ للسَّائل والمَحْرُومِ ــ ١٩ الذّاريات » .. والّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَها في سبيلِ الله فَبَشِّرهُمْ بِعَذَابٍ أليمٍ ــ ٣٤ التّوبة » .

وكان يخاطب الفقراء بقوله : اجمعوا من صلاتكم وصومكم غضباً لله إذا عصي في الأرض ، ولا ترضوا الولاة بسخط الله إن أسخطوا الله ، فجانبوهم وازرروا عليهم ، فإنّ الله أكبر وأعلى .. وهذه دعوة الإسلام والقرآن . قال تعالى : « فَلا تَخْشَوُا النّاسَ ولاَ تَشْتَروا بآيَاتي ثَمَناً قَلِيلاً ــ ٤٤ المائدة » .

فقال له عثمان : إنته عن هذا يا أبا ذر .

قال : أتنهاني عن قراءة كتاب الله ، والله لأن أُرضي الله بسخطك أحبّ إليّ من أن أُسخطه برضاك .

فنفاه عثمان إلى الشّام . ولما دخل دمشق رأى الخضراء قصر معاوية الجديد . وقف ذاهلاً عن كلّ شيء إلا عن أمر الله وطاعته ، فاستأنف سيرته الاولى وقال : هذه هي الخيانة أو الإسراف .

فقال له معاوية : ما الذي أغضبك علينا يا أبا ذر ؟

قال : إنّك أغنيت الأغنياء ، وأفقرت الفقراء .

فحاول معاوية أن يشتري أبا ذر بالمال كما حاول عثمان من قبل !.. ولكن ما لأبي ذر بدّ من طاعة الله ، والعمل بوصيّة رسول الله (ص) فاستمر في ثورته ، وشعارها العودة إلى سيرة النبي وسنته ، وتعاليم القرآن ومبادئه . فاهتزّت الأرض من تحت معاوية وكادت الثورة تؤتي أُكلها ، وتعمل السّيوف في معاوية عملها قبل أن تصل إلى عثمان لولا أنّ معاوية أسرع وعمل على إرجاع أبي ذر إلى عثمان .

وطار صواب عثمان حين رأى أبا ذر منتصباً أمام عينيه ، وقد كان يظن أنّه قد تخلص منه واستراح .. فاشتدّ به الغيظ وقال :

لا أنعم الله بلك علينا .

فقال أبو ذر : والله ما نقمت منّي إلا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . فغضب عثمان وقال :

أشيروا عليّ في هذا الكذّاب !.

النبي صلّى الله عليه وآله وسلم يقول : « ما أقلّت الغبراء ، ولا أظلّت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر » وعثمان يقول : هذا الكذّاب ! فأيّهما الكاذب ؟

ثم دعا عثمان مروان بن الحكم ، وأمره أن يخرج بأبي ذر إلى صحراء الرّبذة ونهى الناس أن يصحبوه أو يشيّعوه.. ولكنّ الإمام أمير المؤمنين (ع) شيعه هو وولداه الحسن والحسين وأخوه عقيل وابن أخيه عبد الله بن جعفر وعمّار بن ياسر ، وودعه الإمام قال له :

« يا أبا ذر إنّك غضبت لله ..» .

فقال أبو ذر للإمام والذين معه :

« بأبي وأُمّي هذه الوجوه ، إنّي إذا رأيتكم ذكرت رسول الله ومالي بالمدينة شجن ولا سكن غيركم ..» .

ومات أبو ذر غريباً بفلاة من الأرض لا يملك حتى الكفن .. ولولا بعض المارة يكفنه برداء من ملابسه لدفن من غير كفن .. وكثير من الصحابة يملكون الملايين ، وفي طليعتهم عبد الرّحمن بن عوف وطلحة والزبير أعضاء مجلس الشورى الذين رشحهم الخليفة الثاني لاختيار عثمان خليفة على المسلمين .

والخلاصة : إنّ أبا ذر لم يكن يعمل باسم الإنتاج ووسائله وباسم الملكية وإلغائها . أو بأي دافع غير القرآن والإسلام ..

وإنّ سيرة أبي ذر لهي من أثمن ما في التراث الإنساني والإسلامي ، وعلى جميع المسلمين أن يدرسوها وينشروها بكل الوسائل ..

إنّها دليل قاطع على أنّ الإسلام ثورة على الفقر والظّلم ، وأنّه يرفض الخنوع والتّردد ومهادنة الطّغاة المستغلّين ، لأنّها تمكن افسادهم في الأرض وعدوانهم .. ولا أدري لماذا نتجاهل هذه الثّورة الإسلاميّة . وهي السّبيل لمرضاة الله ، ثم نهتم بالقشور والمظاهر ؟.

ونختم هذه الإشارة إلى أبي ذر بكلمة أبّنه فيها واحد من النفر الذين حضروا وفاته ودفنه ونقول معه :

« اللهمّ هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ص) عبدك وجاهد فيك، ولم يبدّل ، ولكنّه رأى منكراً فغيّره بلسانه حتّى نفي وحرم ، ثم مات وحيداً غريباً. اللهمّ فانتقم ممن حرمه ونفاه من حرم رسول الله » .

حول مشروع الفلم عن النبي *

قرأت في جريدة النّهار تاريخ ١٤-٧-١٩٧٣ كلمة لسماحة الشيخ نديم الجسر ، ينكر فيها مشروع الفلم عن النبي محمد (ص) الّذي ترعاه وتنفق عليه حكومات ليبيا والكويت والبحرين والمغرب .

وأضم صوتي إلى صوته، وأدعو اهل العلم بالإسلام وشريعته أن يقولوا كلمته بجرأة ، وهي ناصعة الحجة والبرهان بالبيان التالي :

من المسلّمات الأولية عند كافّة المذاهب الإسلامية أنّ نسبة تحليل شيء أو تحريمه إلى الله ورسوله من غير دليل-بدعة وضلالة .. وأنّ دليل الأحكام وفقه الشّريعة ينحصر بنصّ الكتاب والسّنة خصوصاً أو عموماً ، وكلّ فرع أو أصل يجب رده إلى هذا النّص ، فما وافقه فهـو حق ، وإلا فهو زخرف .

وقضية الأفلام السّينمائية وعرضها على الجماهير حادثة جديدة لا نصّ عليها بالذّات ، ولكنّ صاحب الشّريعة يعلم أنّ الحوادث المتوقعة

---

* نشرت في جريدة الشعب - ٢٣ - ٧ - ١٩٧٣ .

من بعده لا نهاية لها ولا حصر ، وأنّ البلوي بها ستعمّ الناس لا محالة .. وعملاً بهذا العلم ،وأداء للأمانة ووظيفة التّشريع في بيان ما يجب بيانه – فقد ضرب صاحب الشّريعة قاعدة كلّية بيّن فيها حكم جميع ما يتجدّد ويحدث من الوقائع من يومه إلى اليوم الأخير ، وقال : «كل شيء مطلق حتّى يرد فيه نهي» . ومثله ما جاء في القوانين الوضعية : « إذا القاضي أعوزته النّصوص عمل بمبادىء قوانين الطّبيعة وقواعد العامة » .

وكلمة «كلّ شيء» تدل على العموم والشمول لكلّ ما لا نّص عليه من الوقائع قديماً كان أم حديثاً ، و «مطلق» أي جائز ومباح فعلاً وتركاً و «حتّى يرد فيه نهي » معناه أنّ الحادث حلال مالم يؤد إلى الحرام ، ويصطدم مع النّص .. وليس من شك أن الأفلام السّينمائية لا نّص عليها بالذّات في كتاب الله وسنّة نبيه ،فهي –إذن– حلال إلا إذا اشتملت على الحرام كالفسق وقول الزّور ، أو أدت إلى الحرام كالفتنة والفساد في الأرض .

ومشروع الفلم عن النبي الكريم (ص) يؤدي إلى أخطر المخاطر والكبائر التي أشار إليها الشّيخ . ومنها أنّ الشّركات الصّهيونية أو التي تستوحي منها سوف تنتج أفلاماً عن النبي تمس بكرامته « وحياته الخاصة وحياته الزّوجية » وحجتها أنّ المسلمين قد فتحوا الباب .

وشاهد العيان لقول الشّيخ ما جاء في كتاب أيام في أميركا للدّكتور زكي نجيب محمود ص ٢٠٥ وما بعده الطّبعة الثّانية . قال من جملة ماقال : « حضرت تمثيلية في مسرح زيجفلد ، اسمها قسمت .. فكم مرّة ذكر فيها القرآن بسخرية ، وكم مرّة ذكر الإسلام بازدراء ، وكم مرّة ذكر محمد باستخفاف وتحقير ... وكان الإخراج في رفعة فن لم أكن أتصورها .. وفي قلب هذا الفن الرائع أيقن الحاضرون أن الإسلام ومحمد والقرآن حماقة عقل ، وشهوة للمرأة لا تنقطع .. وأنّ المسلمين يصلون في حركات هستيرية

تثير الضّحك » .

هذه واحدة من مئات أو عشرات ، وإذا لم نكن على يقين كالشّمس بأنّ الفلم عن النّبي يؤدي حتماً إلى ذلك وأمثاله فلا أقلّ من الشك ، وهو هنا بالخصوص كاف واف في وجوب الكف والإحجام ولو على سبيل الإحتياط اللازم وإن كان الفلم حقاً وصدقاً وتقديساً وتعظيماً لشخصية الرسول الأعظم (ص) وإذا كانت الدماء تصان بمجرّد الشّك بالإتفاق . لحديث تدرأ الحدود بالشّبهات – فإنّ صيانة الدّين عند الشّك أولى وأحق ، لأنّ الأرواح يضحى بها من أجل الدين ، ولا يضحى بالدين لصيانة أي روح من الأرواح .

في القرآن الكريم غنى

للدكتور العظم وغيره عن الماركسية *

كثر الكلام حول كتاب « نقد الفكر الدّيني » للدّكتور صادق العظم وحاولت بعض الصحف بأساليب مدبرة ومدروسة أن تفهم اللبنانيين في هذا الظّرف بالذات الذي يحتل فيه العدو أجزاء كبيرة من الأرض العربية ويتوالى اعتداؤه على جنوب لبنان ، أن تفهمهم أنّ كتاب العظم هو مشكلة السّاعة ... وما عداه فليس بالأمر المهم .. أما هدفها من ذلك فهو صرف الأنظار عن إسرائيل ، ومن يدفعها ويشجعها ويتآمر معها على العدوان .

ونتيجة للضجة المقصودة أو غير المقصودة حول هذا الكتاب حملت إليّ مجلة الصيّاد سؤالاً عن حريّة الكلمة في نظر الإسلام ، فأجبت بما نشرته في عدد ٢٥ – ١٢ – ٦٩. ويتلخص بأنّ الإسلام قد أطلق الحريّة في القول والتّفكير إلى حدّ أنّ الله سبحانه لا يفرض الإيمان به وبكتبه وبرسله فرضاً من غير دليل .. إنّه تعالى يقيم الحجة على ما يقوله ويدعو إليه ، ويطلب من كلّ عاقل أن ينظر فيها ويتدبرها .. وأوضح دليل على ذلك قوله تعالى :

---

* جريدة المحرر – ٨ – ١ – ١٩٧٠ .

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ – ٥٣ فصلت » .

وقد سمح الله للملائكة أن يراجعوه ويقولوا له : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ – ٣٠ البقرة » . وأيضاً سمح للأنبياء في الجدال : « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ – ٧٤ هود ». بل سمح لإبليس أن يحتج لديه ويقول حين أمره بالسّجود لآدم : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ – ١١ الأعراف » .

ورغب إليّ بالحاح بعض الإخوان الأفاضل أن أضع كتاباً خاصّاً بالرد على (نقد الفكر الديني) فاعتذرت له بالتفسير الكاشف الذي هو شغلي الشاغل . فقال : أُكتب لنا ، ولو كتيّباً .. ثم اتصل بي أخ كريم وحميم. وقال : ما زلنا نتطلّع إلى رأيك .. وعندئذ لم أُطق صبراً .. فتركت التفسير الكاشف لأكتب الأسطر ، أو البرقية التالية :

أنا مع الدكتور العظم في ملاحظاته على التوفيق بين الإسلام والمسيحيين التي كتبها في صفحة ٦٠ ، وفيما انتقى إليه من أنّ الأنسب والأصلح أن يتمّ التّفاهم بين اللبنانيين على صعيد وطني لا على صعيد ديني .. وأيضاً أنا معه في كلّ ما جاء في صفحة ٦٤ حول النّظام القائم بلبنان ، وتآمر بعض الفئات القليلة الغنية على استغلال الفئة الكثيرة البائسة تحت شعار مصلحة لبنان العليا ، والتلاؤم بين العقائد الدينية .

ولكنّي أسأل الدكتور العظم ما هو الهدف من جداله ونقاشه في الإيمان بالله بهذا الظرف بالذّات ! . هل الإيمان بالله شيء جديد ظهر بعد حرب حزيران ، وما كان له من قبل عين ولا أثر ، أو أنّه خلق مع الإنسان .

ورافقه في جميع أدواره منذ اليوم الأول ، وأنه سيبقى معه إلى اليوم الأخير ؟ وهل الإيمان بإله عادل رحيم يجزي من أحسن بالحسنى والذين أساءوا بما عملوا ، هل هذا الإيمان ضرر على البشرية يحول بينها وبين ما تبتغيه من العدل والأمن والرفاهية ؟ وهل القرآن الذي ساوى بين الناس وقال : « وَأنْ لَيْسَ للإنْسَانِ إلاّ ما سَعَى – **٣٩** النجم » كتاب جهل وخرافة ؟ وهل الإسلام الذي نقل أُمّة بكاملها من دياجير الجهالة والهمجية إلى نور الحضارة والمدنية ، وكان له هذا الخطر العظيم في العالم كلّه هو دين التّخلف والرّجعية ؟ .

إن أول صيحة أيقظت العرب من جهلهم وسباتهم كانت باسم الله ، وإنّ أول حضارة عمّت الشّرق والغرب انتشرت تحت لواء « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله » .. أما النّهضة العربية في بداية القرن العشرين ضدّ الإستعمار والإقطاع فقد بعثها جمال الدّين الأفغاني باسم القرآن الكريم والنّبي العظيم .

وأيّ ذنب للإسلام إذا حرّفه العملاء والدّخلاء لصالح الإستعمار والصّهيونية . وقالوا للضّعفاء السذّج : إنّ الهزيمة والعبوديّة والجهل والفقر بقضاء الله وقدره ؟.

.. فلقد ابتلي رسول الله والصّحابة بقوم لا يفهمون إلا بلغة القوّة تماماً كما ابتلي العرب بإسرائيل والولايات المتحدة التي لا تفهم إلا بمنطق القوّة ، فقال سبحانه وتعالى لنبيّه الكريم ولمن آمن برسالته : « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة » ...

وبعد فإنّ الإيمان بالله وعدالته لا ينفك أبداً عن الإيمان بالإنسان وخدمته

وكرامته ، كما أنّ خدمة الإنسان لوجه الإنسانية لا تنفك أبداً عن المعنى الروحيّ الإلهي .. أما الإيمان بالإسلام فهو إيمان بأن الدّين عند الله هو دين الحياة ، وإليك الدليل على هذه الحقيقة من القرآن الذي قال بسهولة ووضوح : « يا أيّها الّذينَ آمنُوا استَجِيبوا لله وللرّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لما يُحْيِيكُمْ — ٢٣ الأنفال » . ومعنى هذا أنّ كل ما فيه خير وصلاح فهو من الإسلام في الصّميم . وأنّ أيّ إنسان يدعو إلى حياة لامشاكل فيها ولا تعقيد فإنّ دعوته تلتقي مع دعوة الله والرّسول أراد ذلك أم لم يرد .

وقال : « أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنّةَ ولَمّا يَعْلَمِ اللهُ الّذينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ويَعْلَمَ الصّابِرِينَ — ١٤٢ آل عمران » أي الصّابرين صبر الأقوياء المجاهدين الذين يرفضون الذّل والإستسلام لا صبر الأذلاء الخانعين . وقال : « أُذِنَ للذينَ يُقَاتِلُونَ بأنّهُمْ ظُلِمُوا وأنّ الله عَلى نَصْرِهِمْ لَقَديرٌ—٣٩ الحج » أذن لهم بقتال المعتدين ووعدهم بالنصر . بعد أن تجاوزوا مرحلة الصمود والسلاح إلى مرحلة الهجوم .

ولو تشبّع الدكتور العظم بالقرآن وتعاليمه الإنسانية لوجد فيه حلولاً جاهزة لجميع مشاكل الإنسان ، ولأيقن أنّه في غنىً بالإسلام ، دين آبائه وأجداده عن الماركسية وغيرها .. وتمنّيت لو درس الدكتور هذه الحلول درساً علمياً ونزهّها عن تحريف العملاء والدّخلاء الّذين اتخذوا من هذا التّحريف ذريعة للتّعاون الذّليل الدنيء مع المعتدين .. ولو فعل لهدّ ركناً من أركان الإستعمار والضّلال .. ولا شيء أدلّ على ذلك من تحريف إسرائيل لكلمات القرآن الكريم خوفاً من مبادئه وتعاليمه ، وطبع الالوف من النسخ المحرّفة وتوزيعها بالمجان أو بأبخس الأثمان عن طريق أحبابها وأذنابها . ومن غريب الصّدف أنّي في اللحظة الّتي انتهيت فيها من كتابة هذه الكلمة قرأت في جريدة الجمهورية المصرية تاريخ ٦ — ١ — ٧٠ :

أنّ إسرائيل تذيع القرآن من محطاتها محرّفاً في آياته وأنّ أحد زعماء الصّهيونية قال بالنّص: «يجب أن نتخذ القرآن سلاحاً مشهوراً ضد الإسلام لنقضي عليه فيرى المسلمون أنّ الصّحيح في القرآن ليس جديداً وأنّ الجديد فيه ليس صحيحاً» . ويلتقي هذا مع بعض أفكار « نقد الفكر الديني » .. فما رأي الدكتور العظم وجوابه ؟ ..

العمل بالحديث وشروطه*

عند الإمامية

إنّ مصادر الإسلام ومبادئه أُصولاً وفروعاً أربعة : الكتاب ، والسنّة والإجماع ، والعقل .

معنى السّنّة :

ومعنى السنّة باصطلاح العلماء : قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو فعله ، أو تقريره ، ومعنى التقرير : الرّضا والموافقة .

أدلّة الثّبوت :

وقد نستكشف رضا النّبي وموافقته من الكتاب ، أو الإجماع ، أو العقل ، وقد يحصل لنا الوثوق بأنّه قال ، أو فعل ، أو وافق ، عن طريق النّقل والرّواية .

---

* رسالة الإسلام تاريخ المحرم ١٣٨٤ هـ .

وعقدنا هذا البحث لإثبات السّنة بطريق النّقل والرواية فقط ، وعلى الأصح لبيان القيود والشّروط الّتي يجب توافرها في الخبر الحاكي عن السّنة عند الإمامية .

• قد ذهبوا إلى أنّ الباحث المنقّب عن السّنة النّبوية لا يجوز أن يعتمد لإثباتها على خبرته الشّخصية ، ومجرّد اجتهاده ونظره ، مهما كان مصدر الظّن والإجتهاد، ولا على مجرّد خبر الرّاوي أيّاً كان ، وكانت صفته، وإنما تثبت السّنة بخبرين لا غير : الخبر المتواتر ، والخبر الواحد .

الخبر المتواتر :

وعرّفوا الخبر المتواتر بأنّه خبر جماعة بلغوا من الكثرة مبلغاً أحالت العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب ، على شريطة أن يستوي التّواتر في جميع الطّبقات . بحيث تكون الطبقة الاولى الّتي أخذت عن صاحب السّنة مباشرة متواترة . وكذا الطّبقة الثانية والثالثة ، ولا تشترط العدالة في رواة الخبر المتواتر بالإتفاق ، أما عددهم فلا يتعيّن بحدّ ، والمهم أن نعلم بامتناع التّواطؤ على الكذب ، وأن يكون الخبر من شأنه وطبعه مفيداً للعلم ، بحيث لو اطلع عليه ذوو الفطرة السّليمة لعلم بوجود السّنة، فلو افترض أن شخصاً اطلع عليه ، ولم يحصل له العلم ، لسبب من الأسباب يكون — مع ذلك — حجة عليه ، ويلزمه العمل به(١) .

---

(١) وبهذا يتبين ما في قول صاحب « الاصول العامة للفقه المقارن » فقد جاء في صفحة ١٩٦ طبعة اولى : « أن المدار على العلم ، فان حصل فهو الحجة » ويلاحظ بأن المدار على صفة التواتر الذي من شأنه أن يفيد العلم نوعاً ، وإن لم يحصل للفرد ... هذا ، إلى أن الخبر المتواتر ليس بأسوأ حالا من الخبر الواحد ، أللهم إلا أن يدعى بأن الخبر المتواتر هو الذي يحصل منه العلم الشخصي ... وهذا مجرد دعوى .

الخبر الواحد :

الخبر الواحد في اصطلاح العلماء هو الّذي لا يبلغ حدّ التّواتر ، سواء أكان الرّاوي له واحداً ، أو أكثر ، فوصف الوحدة هنا يراد به عدم التواتر ، لا عدم التّعدد، وبتعبير ثان : إنّ المتواتر أُخذ « بشرط شيء » أيّ بشرط التّواتر ، والواحد أُخذ « بشرط لا » أي بشرط عدم التّواتر ، والخبر الشّامل لهما معاً « لا بشرط » أي لا يشترط فيه التّواتر ولا عدمه ، ومن هنا قالوا : « إنّ كلاّ من الخبر المستفيض والخبر المشهور نوع من الخبر الواحد » .

والمستفيض في اصطلاحهم ما رواه أكثر من اثنين ، ولم يبلغ مبلغ المتواتر ، والمشهور ما اشتهر على الألسن ، وفي الكتب ، وإن كان راويه واحداً ، وعليه تكون الإستفاضة وصفاً لراوي الخبر لا للخبر ، والشهرة وصفاً للخبر لا للرّاوي .

أما الخبر الذي حصل العلم بصدوره من القرائن الدّاخلية أو الخارجية ، كخبر « إنّمَا الأعْمَالُ بالنّيَاتِ ، وَلِكُلّ امْرِىءٍ ما نَوى » أما هذا ، وما إليه فلا جدال ولا نقاش بين العلماء في أنّه حجة معتبرة ، لا للشّهرة أو الإستفاضة ، ولا للتّواتر أو أي شيء آخر ، بل لمجرد العلم بالصدور الذي هو حجة بنفسه ، وبدون جعل جاعل .

وبهذا يتبين معنا أنّ كلاّ من الخبر المتواتر ، والمحفوف بالقرائن المفيدة للقطع يجب الأخذ به ، والإعتماد عليه بالاتفاق . أما الخبر الذي لم يبلغ حدّ التّواتر ، ولم يعلم بصدوره من القرائن فهو محلّ الكلام والبحث ، سواء أكان مستفيضاً ، أو مشهوراً ، أو غريباً ، لم يروه إلا فرد ، ولم يشتهر على الألسن ، ولا في الكتب .

وتكلم الفقهاء عن هذا الخبر من جهات شتى ، تكلّموا في أصل صدوره عن صاحب السّنة ، وقسّموه من هذه الجهة إلى أقسام : صحيح وضعيف وحسن وموثّق ، وتكلّموا في جهة الصّدور ، وأنّها لبيان الواقع أو غيره ، وأيضاً تكلّموا في متنه ، والمعنى الظاهر من لفظه ، وفي إرادة هذا الظّهور ، وفي الدّليل على اعتباره ووجوب العمل به . أما نحن فينحصر كلامنا في أصل الصّدور ، وبالأصح في ذكر شروط السّند التي تسوّغ نسبة الخبر إلى صاحب السّنة في حال عدم العلم والقطع بصدوره عنه ، وبديهة أنّ أهم شيء في الحديث هو الإسناد لأنه كالأساس للبناء .

الشروط :

اتفق الإمامية – إلا من شذّ [1] – على أنّ السّنة تثبت برواية الراوي ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، فقال بعضهم : إنّ كلّ خبر يحصل منه الظّن بالحكم الشّرعي . أو بحجية الخبر فهو حجة متبعة ، سواء أكان الراوي ثقة ، أم غير ثقة . واستدلّ هؤلاء : « بأنّا نعلم بوجوب الرّجوع إلى السّنة والعمل بها تماماً كما يجب الرّجوع إلى القرآن الكريم ، فإن أحرزنا السّنة بالعلم فذاك ، وإلا فلا بد من الرجوع إلى الظن لتعيينها ، ومعنى هذا أنّ علينا أن نطيع أوامر الله بطريق العام ، فان تعذّر العلم وانسدّ بابه وجب الإمتثال بأقرب الطرق إلى العلم ، وليس من أنّ أقرب الطّرق إليه الظّن.. وهذا في حقيقته عمل بالظنّ لا بالخبر الواحد، والعمل به عمل بلا دليل، بل قام الدّليل على تحريم العمل بالظّن ، لأنّ مجرد الشّك في حجية الشيء،

---

(١) ذهب ابن قبة ومن تبعه إلى وجوب الإختصار على الخبر المتواتر ، والمحفوف بالقرائن القطعية ، وعدم العمل بالخبر الواحد إطلاقاً ، وحاول بعض العلماء أن يوجه ذلك بما يرجع إلى قول الأكثرية الغالبة ، فقال : إن مراد ابن قبة ومن إليه عدم العمل بالخبر الواحد الذي لم يجمع الشروط ، ومهما يكن فان هذا القول متروك .

أي شيء ، دليل على عدم حجيته ، هذا ، إلى نص القرآن الكريم على أنّ الظّن لا يغني عن الحقّ شيئاً .

ومهما يكن ، فقد استثنى علماء الإمامية من تحريم العمل بالظّن موارد قام الدّليل القطعي عندهم على اعتبارها ، وأنّها تماماً كالعلم ، منها الظّن الحاصل من الخبر الواحد إذا كان راويه مسلماً عاقلاً بالغاً موثوقاً ضابطاً .

اشترطوا الإسلام في الرّاوي ، مع أنّ غير المسلم قد يكون صادقاً في النقل وربما أصدق من بعض المسلمين ، اشترطوا الإسلام تعظيماً انبوّة محمد والإيمان بها ، وبديهة أنّ المجنون لا يعتمد عليه في شيء ، والصبيّ ملحق به ، واشترطوا الوثوق والأمانة في النّقل للإحتراز من الكذب ، أما الضّبط فلأنّ المغفّل قد يزيد أو ينقص ، ويغيّر ويبدّل فيما يسمع .

القويّ والضّعيف :

يعتقد كل من السنّة والشّيعة أنّ في أحاديثهم القويّ والضّعيف . والصحيح والسّقيم ، ومن هنا وضعوا علم الرّجال ، وألفوا فيه العشرات من الكتب للغربلة والتّصفية ، قال المحقق القمي في الجزء الثاني من كتاب القوانين ص ٢٢٢ طبعة سنة ١٣١٩ هـ : « إنّ دعوى قطعية أخبارنا — أي العلم بصحتها جميعاً — من أغرب الدّعاوى .. مع أنّ في الأخبار الموجودة في كتبنا ما يدلّ على أنّ الكذّابة والقالة قد لعبت أيديهم بكتب أصحابنا . وأنّهم كانوا يدسّون فيها » .

وروى الشّيخ الأنصاري في كتاب « الرسائل » الذي هو عمدة التّدريس في النجف أنّ الإمام الصادق قال : « إنا أهل بيت صديقون لا نخلو من كذّاب يكذب علينا . إنّ الناس أولعوا بالكذب علينا ، كأنّ الله افترضه

عليهم ، ولا يريد منهم غيره .. إنّ لكلّ منّا من يكذب عليه » .

ونقل صاحب سفينة البحار في الجزء الأول مادة « حدث » أن بعض أهل البصرة جمع الأحاديث الموضوعة ، وعرضها على الإمام الصادق .

وفي إحدى خطب نهج البلاغة ذكر الإمام رواة الحديث ، وفي طليعتهم «المنافق الذي لا يتأثّم ولا يتحرّج من الكذب على رسول الله متعمّداً» .

وأفضل كتب الحديث عند الإمامية كتاب « الكافي » للكليني . ومع هذا ضعّف علماؤهم الكثير من أحاديثه . وأحصى بعض الفضلاء الأحاديث التي ضعّفها ووهّنها العلامة المجلسي في شرحه للكافي . فبلغت الالوف .

والآن ، وأنا أكتب هذه الكلمات تركت القلم ، ورجعت إلى أُصول الكافي ، وعددت ثلاثين حديثاً من أوله . فوجدت منها ثلاثة عشر حديثاً ضعيفاً . وثمانية أحاديث مرسلة ، وحديثين راويهما مجهول . والسّبعة الباقية من الثّلاثين بين صحيح وموثّق بشهادة الشّارح المتتبع العلامة المجلسي الذي وصف الكافي بأنّه « أضبط الاصول وأجمعها . وأحسن المؤلفات وأعظمها عند الإمامية » .

فهل بعد هذا يقال : إنّ لدى الإمامية صحاحاً في الحديث ، أو صحيحاً واحداً من أوله إلى آخره ؟ .

ولو صدق هذا القيل لكان احتجاج مجتهد على مجتهد إمامي بحديث من الكافي تماماً كالإحتجاج بآية من آي الذّكر الحكيم . مع أنّ لكلّ مجتهد إمامي أن يرفض أي حديث لا يرتضيه في الكافي وغيره ، ويأخذ بحديث موجود في البخاري أو مسلم . ولا يحق لأحد أن يحتج عليه من وجهة دينية أو مذهبية .

من هو الثقة عند السنة ؟.

ذكرت في كتاب « الشيعة والتشيّع » ما يلي :

سألني أحد الإخوان : أصحيح أنّ السّنة يشترطون في الرّاوي أن لا تكون فيه رائحة التشيّع ؟ وهل وجدت في كتبهم مصدراً لهذا القول ؟.

قلت له : هذا قول المتعصبين منهم[1] ، وليس مبدأ عاماً عندعلمائهم ، فقد نقل الغزالي عن الشافعي في كتاب المستصفى أنّه قال : « تقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية من الرافضة ، لأنّهم يرون الشّهادة بالزّور لمن وافقهم بالمذهب » .

وقال الخضري في كتاب أُصول الفقه : « أما المبتدعون ببدع غير مكفّرة فأكثرهم — أي أكثر علماء السّنة — على القول بقبول رواياتهم ، وهو المعقول ما داموا لا يدينون بالكذب ، ولا نظن هذا معتقداً لأي طائفة من المسلمين ، وإن نسب إلى الخطّابية أنّهم يدينون بالشهادة لمن يوافقهم في الإعتقاد »[2] .

وروى أصحاب الصّحاح السّتة عن رجال من الشيعة ، كإبان بن تغلب ، وجابر الجعفي ، ومحمد بن حازم ، وعبيدالله بن موسى ، وغيرهم .

من هو الثقة عند الإمامية ؟.

والذي جرى بين علماء السّنة جرى أيضاً بين علماء الإمامية ، حيث

---

(١) راجع كتاب « فواتح الرحموت » المطبوع مع المستصفى : ص ١٤٠ ج٢، لتعرف من هؤلاء المتعصبون ... إن أحببت أن تعرفهم .

(٢) جاء في أحاديث أهل البيت أن الخطابية يشهد بعضهم لبعض بالزور ، والخطابية نسبة لأبي الخطاب محمد بن مقلاص ، وكان في عهد الإمام جعفر الصادق ، وقد تبرأ منه الإمام ولعنه .

اشترط البعض أن يكون الرّاوي إمامياً ، وذهب المحقّقون منهم إلى الإكتفاء بمجرد الوثوق بصدق الراوي ، إمامياً كان أو غير إمامي ، من هؤلاء العلامة الحلي في كتاب « الخلاصة » ومنهم صاحب القوانين ، قال في الجزء الأول ما نصه بالحرف : الأظهر قبول أخبار غير الموثقين منهم – أي غير الإثني عشرية – فإنّ التثبّت يحصل بتفحّص حال الرجل في خبره ، فإذا حصل التثبّت في حاله ، وظهر أنّه لا يكذب في خبره فهذا تثبّت » .

وقال السيّد القزويني في حاشيته على الجزء الثاني من القوانين : « إنّ المعتبر تحصيل ما يوجب الوثوق بصدق الرواية » .

وجاء في كتاب « تنقيح المقال » ج١ ص ٢٠٦ : « ورد النّص عن الإمام أن نأخذ برواية من خالفنا دون ما رآه ، وقد لزمنا بذلك العمل بالخبر الموثوق الذي هو في اصطلاح العلماء من كان ثقة غير إمامي » .

وقال الشّيخ الأنصاري في « الرسائل » عند كلامه في الخبر الواحد : أنّ الإمام الصّادق قال : « خذوا ما رووا ، وذروا ما رأوا » ثم قال الأنصاري : « والأخبار متواترة بالأخذ بخبر الثّقة والمأمون » .

وقال السّيد محمد تقي الحكيم في « الاصول العامة » ص ٢١٩ طبعة أولى : «اعتبر الشّيعة الإمامية أخبار مخالفيهم في العقيدة حجة إذا ثبت أنّهم من الثّقات ، وأسموا أخبارهم بالموثقات ، وهي في الحجية كسائر الأخبار ، وقد طفحت بذلك جل كتب الدّراية لديهم[1] .

وبهذا يتبين معنا أنّ علماء السّنة والشيعة متفقون على أنّ مقياس العمل

(١) اهتم الإمامية بالحديث اهتماماً بالغاً ، وألفوا فيه كتباً متنوعة : النوع الأول أدرجوا فيه الأحاديث بألفاظها ، والثاني تكلموا فيه عن أحوال الراوي وهل هو ثقة أمين أو لا ؟ وهذا هو علم الرجال والثالث تكلموا فيه عن حكم الحديث بمجموعه وقالوا : إن كان الحديث كذا فحكمه كذا ، وأسموه علم الدراية .

بالحديث هو الثّقة بصدق الراوي ، وأمانته في النّقل ، سنياً كان أو شيعياً تماماً كالحكمة يأخذها المؤمن أنّى وجدها .

وبالتالي ، فقد كتبت هذه الكلمة الموجزة بمناسبة الحركة المباركة الّتي تعتزم القيام بها « دار التقريب » من جمع الأحاديث المتفق عليها بين السّنّة والشيعة ، والّتي ترتكز على الوثوق بصدق الراوي ، جمعها في كتاب واحد ، عملاً بمبدإ الدار ، وتحقيقاً لهدفها الإنساني الإسلامي ، وبهذا تقدم الدار شهادة العدل والصدق على أنّ الفريقين يصدران من معين واحد .
أخذ الله بيدها ، وكتب لجميع مشاريعها الخيرية النّجاح والفلاح .

الاجتهاد في نظر الاسلام*

قرأت في العدد الثاني من السّنة الثالثة من مجلة (رسالة الإسلام) الغراء كلمة بهذا العنوان للاستاذ الكبير الدّكتور أحمد أمين بك ، فرأيتها كلمة حقّ أراد بها الإصلاح . وبعثه عليها الإخلاص .

استشهد الدكتور بقولي أبي حنيفة وأبي يوسف في مسألة الثّوب المغصوب إذا صبغه الغاصب بالسّواد ، وبجواب مسكويه لأبي حيان التّوحيدي . استشهد بهذين وبغيرهما على أنّ الحكم الشّرعي يتّبع الحالات التي تختلف باختلاف الزّمان والمكان .

ونجد شواهد كثيرة على هذه الحقيقة في كتب الشّيعة الإمامية ، فإنّهم يحكّمون الحالات والظّروف على أقوال أئمتهم الّذين يقدّسونهم أعظم تقديس . ويجعلون قول الإمام محكوماً للعادة لا حاكماً عليها ، فيؤوّلون الأحاديث الثّابتة عن أهل البيت حسب العادة المتبعة .

من ذلك ما جاء في كتاب «جواهر الكلام» أنه ثبت عن الإمام الصادق (ع) :

---

* رسالة الإسلام ربيع الثاني سنة ١٣٧١ هـ .

أنّ المرأة إذا أُهديت لزوجها ، ودخلت بيته ، ثم اختلفا على إيصال المهر ، فقال هو : أعطيت ، وقالت هي : كلاّ ، فعليها البيّنة ، وعليه اليمين ، وعلى الرّغم من اعتراض صاحب الجواهر وغيره من علماء الشّيعة الإمامية بصحة تلك الأحاديث فقد أفتوا بنقيض ظاهرها ، وأوجبوا البيّنة على الزوج ، لأنّه مدعٍ للإيصال ، واليمين على الزّوجة ، لأنّها تنكر الإيصال ، ثم قال صاحب الجواهر : قد يقال إنّ العادة كانت في عصر الأئمة على أنّ الزوجة لا تهدى إلى بيت زوجها إلا بعد أن تقبض المهر بكامله . وعلى ذلك تحمل نصوص أهل البيت [1] .

فالمعوّل إذن على العادة ، فإذا تغيّرت تغيّر الحكم .

وفي باب الوقف من كتاب ملحقات العروة الوثقى للسيّد كاظم اليزدي : أنّ ظاهر إجماع الإمامية على أنّ الوقف لا يتم إلا مع الصّيغة اللفظية الدّالة عليه صراحة ، لأنّ لفظ وقفت ، وتصدّقت ورد في حديث أهل البيت . ومع اعتراف السيّد بصحة النّص وثبوت الإجماع . فقد أفتى بعدم وجوب الصّيغة ، وكفاية المعاطاة بالوقف ، استناداً إلى أنّه قد جرت سيرة النّاس وعاداتهم على أن يبنوا المسجد للصّلاة ، ويغرسوا الأشجار للإنتفاع العام ، ويتركوا أرضهم للدّفن من غير إجراء صيغة . ويكون ذلك وقفاً عندهم ، فهو وقف أيضاً عند الشّرع .

أنزل السيّد الإجماع وظاهر النّص على حكم العرف ، وهذا هو

---

(١) كتاب « جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام » للشيخ محمد حسن الشيخ باقر من علماء القرن التاسع عشر ، والكتاب أعظم مرجع للشيعة الإمامية ، فيه جميع أبواب الفقه ، وأقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين في كل مسألة مع دليلها ودليلهم العقلي والنقلي ، ويقع في خمسة مجلدات كبار ، يبلغ المجلد ٥٠٠ صفحة على التقريب ، طبع مرات عديدة في إيران بالطبع الحجري .

الإجتهاد الذي أراده الدكتور ، ودعا إليه بقوله : نريد اجتهاداً مطلقاً يشمل كلّ شيء حتى في تقييد النّص ووقف العمل به .

وأجمع علماء النّجف في هذا العصر على أنّه لو قال رجل من شيعة العراق فلان وصيّي ولم يزد على ذلك تثبت الوصية ، ويصرف ثلث الترّكة فيما يراه واجباً وراجحاً ، لأنّ عادة العراقيين جرت على ذلك ، بينما لو قال هذا رجل من جبل عامل تكون الوصية لغواً حيث لم يعرف المراد منها .

وفي كتاب الطّهارة للشّيخ مرتضى الأنصاري : أنّ الكاهلي روى عن الإمـــام الصّادق أنّه سأله عن قـــوم مسلمين يأكلون فحضرهم رجل مجوسي ، أيدعونه إلى الطّعام ؟ فقال : أكره أن أُحرّم عليكم شيئاً تصنعونه في بلادكم . تدلّنا هذه الرّواية على أنّ في الشّريعة الإسلامية أحكاماً تستمدّ من عادات البلاد وآدابها . وأنّ الأمر ليس كما يظن بأنّ كل حكم شرعي ثابت مستمر كنواميس الطبيعة . يخضع له كلّ شيء ، ولا يخضع هو لشيء.

وفي المجلد السادس عشر من كتاب بحار الأنوار : أنّ رجلاً قال للإمام موسى بن جعفر (ع): أُريد السّفر لوجه : فعلمني استخارة إن كان ذلك خيراً يسّره الله لي وإن كان شرّاً صرفه عني .

فقال له : أيجب أن تخرج في ذلك الوجه ؟

قال الرجل : نعم .

فقال له : قل اللهم قدّر لي الخير . فإنّك تقدر على ذلك .

رأى الإمام أنّ الرجل يريد السّفر لبعض شؤونه . وأنّ القلق يساور نفسه خوفاً من الخيبة . وأنّه لجأ إلى إمامه رغبة في الإطمئنان والسّكينة ،

لما رأى الإمام ذلك منه ، ورأى السّفر واجباً له أمره به . وعلّمه دعاءا تدلّ كلماته وأُسلوبه على أنّ الإمام لاحظ حالة الرجل ، ووضعه الخاص فأنشأ له هذا الدّعاء حسب حالته وظرفه ، فالإمام لم يرشد الرّجل إلى دعاء ثابت مقرّر لكلّ من يريد السّفر ، ولا لكلّ من ساوره القلق والإضطراب . وانما نظر إلى ما تستدعيه حالته الخاصة ، فوضع لها هذا العلاج الخاص ، فكما أنّ واجب المجتهد أن يبحث عن النّصوص الثابتة والقواعد المقرّرة للشرع ، قبل أن يصدر حكمه . عليه أيضاً أن ينظر إلى عادات الناس وتصرّفاتهم وأوضاعهم ، ثم يتخذ منها مقاييس لأحكامه . على أن يلائم بين تلك النّصوص الثابتة والقواعد المقرّرة ، وهذه المقاييس التي فرضتها الحياة وحاجاتها المتباينة ، أي أن يضيف إلى النّصوص والقواعد الشّرعية مبدأ شاملاً وقاعدة عامة . وهي أنّ كلّ ما لا يحقق لنا المصلحة والخير والنّفع لا يجب العمل به .

وبهذه المناسبة ننقل ما قاله صاحب الجواهر في باب الشّهادات ، وقد خالف الفقهاء في رأي رآه قال متهكماً على المقلّدين الجامدين : وظنّي أنّ من يقف على كلامي هذا يستبشعه ويستنكره لخلوّ كلام الأصحاب (١) عن تحريره ، لأنّهم لا يطيلون إلا بذكر المناسبات التي لا تصلح دليلاً شرعياً ، والتي هي أشبه شيء بالعلل النّحوية تسطر لتشويش الأذهان . ومنع العقول عن بلوغ الحقائق ، وخاصّة من اعتاد التقليد ، وأثبت العصمة لغير المعصوم .

لقد تنبه هذا الحبر الجليل إلى هذه الحقيقة منذ أكثر من مائة عام . وأعلنها حين لم تكن الحياة والأفكار في عهده كما هي عليه اليوم ، أما نحن فما زلنا نعتمد الكثير من تلك الأدلّة التي نعتها صاحب الجواهر بالتشويش

---

(١) يريد الفقهاء .

بحجير العقول ، ونخرّج عليها أحكاماً لحياتنا التي لا تمت بصلة قريبة و بعيدة إلى حياة أولئك الفقهاء ، لقد كان صاحب الجواهر أبعد نظراً ، وأصح تفكيراً ، وأكثر تفهماً للشّريعة ومقاصدها من رجال الدّين في هذا العصر حتّى كأنّه خلق قبل زمانه بمائة عام . وخلقنا نحن بعقول من سبقونا بألف عام . يجب أن نكيّف اجتهاداتنا حسب حاجاتنا وظروفنا على أساس مبادىء الإسلام العامة . ومقاصد الشّريعة السّمحة المرنة غير مكترثين بقول من تقدّم أو تأخر . ما دمنا على بينة من الشّرع والعقل ؟

التقليد واصول العقيدة ـ التفسير

« وإذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما ألْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » . الضّمير في (لهم) يعود على كلّ من قلّد الغير بلا حجة ودليل ، وترك قول الله والرسول بقول الآباء ، والمراد بما أنزل الله كلّ ما قامت عليه الدّلائل والبراهين ، وآمنت به العقول السليمة .

« أوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ » . الهمزة للتّوبيخ ، والواو للحال ، والمعنى أيتبعون الآباء حال كونهم لايعقلون شيئاً من أمور الدّين .. فليس المراد من قوله: « لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً » نفي العقل والفهم عنهم في كلّ شيء ، وإن كان الظّاهر يعطي ذلك ، بل المراد نفي التّعقل في أمــور الدّين فقط ، لأنّ الكلام في خصوص الامور الدّينية وفيما يلي نشير إلى أنّ هذه الآية تدلّ على قبح التّقليد في الضّلال . أما التّقليد في الهدى فإنّه من القدوة الحسنة .

إن التقليد كفكرة . ومن حيث هو لا يذم ولا يمدح ، ولا يحكم عليه بحسن ولا بقبح بوجه عام . بل يختلف باختلاف أنواعه التالية :

١ ـ التقليد الذي يرجع إلى العدوى النّفسية . والغريزة الّتي تشاهد في

الإنسان والحيوان على السّواء . من ذلك صياح الديكة حين تسمع صوت أحدها ، ونهيق الأحمرة حين ينهق واحد منها .. وكذلك الحال بالنّسبة إلى الإنسان ، يصفّق واحد للخطيب . فيقلّده الآخرون من غير شعور . حتّى ولو لم يفهموا شيئاً مما أراد . وينظر شخص إلى جهة معيّنة . فيصوب النظر إليها كلّ من يراه من غير قصد . وهذا النّوع من التّقليد لا يوصف بحسن ولا بقبح ، لأنّه خارج عن دائرة الشّعور والإرادة .

٢ ــ ما جرت عليه العادة في طريقة المحاورات والمجاملات . وفي كيفية اللباس . وما إلى ذلك مما تستدعيه الحياة الإجتماعية . ويشترك فيه الكبير والصّغير . والعالم والجاهل . وهذا النّوع من التّقليد يوصف بالحسن والقبح تبعاً لما يراه النّاس .

٣ ــ تقليد الجاهل للعالم في الشؤون الدّنيوية . كالطب والهندسة . والزراعة والصّناعة . وما إليها من الرّجوع إلى أهل الخبرة والإختصاص . وهذا التقليد حسن . بل هو ضرورة لازمة تفرضها الحياة الإجتماعية . ولولاه لاختل النظام . وتعطّلت الأعمال . إذ ليس في مقدور الإنسان أن يعلم كلّ شيء . ويحيط بكلّ ما يحتاج إليه . وقد كان الإنسان . وما زال بحاجة إلى التّعاون ، وتبادل الخدمات .

٤ ــ تقليد المجتهد لمجتهد مثله في الامور الدّينية . فإنّه مذموم عقلاً وعرفاً ، ومحرم شرعاً . لأنّ ما علمه هو حكم الله في حقّه . فلا يجوز تركه بقول غيره .. وأي عاقل كفوء تقوم الحجة لديه فينكرها بحجة سواه ؟.. وأيّ عالم يرغب عن قول الله ورسوله المعصوم إلى قول من يخطىء ويصيب ؟

٥ ــ تقليد الجاهل للمجتهد العادل في المسائل الدّينية الفرعية . لأحكام العبادات ، والحلال والحرام ، والطّهارة والنّجاسة ، وصحة المعاملات .

وما إليها ، وهذا التّقليد واجب عقلاً وشرعاً ، لأنّه تقليد لمن أخذ علمه من الدليل والحجة ، تماماً كتقليد المريض الجاهل بدائه ودوائه للعالم بهما .. إنّ الجاهل مكلّف بالأحكام ، ولا طريق له إلى الإمتثال إلا بالرجوع إلى العالم : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » .

أجل ، إذا صلّى الجاهل وصام تبعاً لآبائه ومن إليهم ، لا تقليداً للمجتهد العادل ، وطابقت عبادته الواقع صحت منه وقبلت ، لأنّ التّقليد ليس جزءاً ولا شرطاً من المأمور به ، وإنما هو مجرد وسيلة .. وبالأولى أن تصح معاملاته إذا وقعت على وجهها .

أما قول من قال : إنّ العبادة تفتقر إلى نية القربة ، ونية القربة لاتتحقق إلا من المجتهد والمقلّد له . أما هذا القول فمجرّد دعوى ، لأنّ معنى نية القربة الإتيان بالمأمور به بدافع الأمر المتعلّق به خالصاً من كلّ شائبة دنيوية.. وليس من شك أنّ هذا يتحقّق من غير المقلّد المجتهد . وقوله تعالى : « أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ » يشعر بأنّ الأب إذا كان على هدىً ، وقلّده الإبن صح عمله .. فالعبرة ، إذن ، بالمطابقة ، وكفى .

٦ ــ التقليد في أُصول الدين والعقيدة ، كمعرفة الله وصفاته ، ونبوة محمد وعصمته ، والبعث والنّشر .. وقد منع أكثر علماء السّنة والشّيعة هذا النّوع من التّقليد ، وقالوا بعدم جوازه ، لأنّ التقليد قبول لشيء بلا دليل ، وهذا هو الجهل بعينه ، أي أنّ القائل بوجود الله تقليداً ، تماماً كمن يجهل وجوده من الأساس .. وقال هؤلاء : إنّما أجزنا التقليد في الفروع والمسائل العملية دون الاصول العقائدية ، لأنّ المطلوب في الفروع مجرد العمل على مقتضى قول المجتهد ، وهذا ممكن بذاته ، بخلاف الاصول العقائدية فإنّ المطلوب فيها العلم والإعتقاد .. والعلم لا يجتمع مع التّقليد،

لأنّه جهل محض ، والإعتقاد خارج عن الإختيار والإرادة ، فلا يتعلّق التّكليف به .

وقال المحققون من السّنة والشّيعة : إذا أعقب التّقليد تصديق جازم مطابق للواقع صح ، لأنّه هو المطلوب ، والإجتهاد ليس شرطاً ولا جزءاً من الإيمان والتّصديق ، وإنّما هو وسيلة ، لا غاية .

وهذا هو الحق ، لأنّ العبرة في أُصول العقائد بالإيمان الصّحيح المطابق، ومن أجل هذا قبل النّبي (ص) إسلام كل من آمن به ، واطمأنت نفسه لصدقه ونبوّته ، دون أن يجتهد ويستعمل النّظر .. أما الآيات الّتي وردت في ذم اتباع الآباء فإنّ سياقها يدلّ على أنّ المراد منها التقليد في الباطل والضّلال ، لا في الحق والهداية .. وتظهر هذه الحقيقة لكل من أمعن الفكر في قوله تعالى : « أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ». وقوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » . وقوله : « أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ » . فإنّ معنى هذه الآيات أنّ آبَاءهم إذا كانوا على الهدى الذي نزل على الرسول جاز اتباعهم ، لأنّ المطلوب هو اتباع ما أنزل الله ، فإذا اتبعوه فقد امتثلوا وأطاعوا ، ولا يسألون بعد الطّاعة عن شيء.

واختصاراً إنّ كلّ من اتبع الحق الثّابت بالدّليل ، سواء أكان على علم من هذا الدّليل ، أو لم يكن . ويكفي أن يعلم إجمالاً بأنّ هناك دليلاً صحيحاً يعرفه أهل الإجتهاد والإختصاص ، بل من اتبع الحقّ دون أن يعلم أنّه حقّ فلا يعاقب على ترك التّعلم ، وإن لم يستأهل المدح والثّواب . ويشعر بذلك قوله تعالى : « وإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا » . فانّ المستفاد منه إن جاهداك على أن تؤمن بالله ، وأطعت من غير علم فلا بأس عليك .

التقية بين السنة والشيعة*

معنى التقية الّتي قال بها الشّيعة أن تقول ، أو تفعل غير ما تعتقد . لتدفع الضّرر عن نفسك ، أو مالك ، أو لتحتفظ بكرامتك ، كما لو كنت بين قوم لا يدينون بما تدين ، وقد بلغوا الغاية في التعصب . بحيث إذا لم تجارهم في القول والفعل تعمّدوا إضرارك والإساءة إليك .. فتماشيهم بقدر ما تصون به نفسك وتدفع الأذى عنك ، لأنّ الضّرورة تقدّر بقدرها .. وقد مثّل فقهاء الشّيعة لذلك بأن يصلي الشّيعي « متكتفاً » ، أو يغسل رجليه في الوضوء بدلاً من مسحهما في بيئة سنية متعصّبة ، بحيث إذا لم يفعل لحقه الأذى والضّرر .

هذي هي التقية في حقيقتها وواقعها عند الشّيعة ، وما هي بالشيء الجديد ، ولا من البدع الّتي يأباها العقل والشّرع .. فقد تكلّم عنها الفلاسفة وعلماء الأخلاق قبل الإسلام وبعده ، تكلّموا عنها وأطالوا ، ولكن لا بعنوان التقية ، بل بعنوان : « هل الغاية تبرر الواسطة » ؟. وما إلى ذاك ، وتكلّم عنها الفقهاء وأهل التشريع في الشرق والغرب بعنوان : « هل يجوز التوصل إلى غاية مشروعة من طريق غير مشروع » ؟. وبعنوان « المقاصد

* نشرته رسالة الإسلام العدد ٥٣ تاريخ المحرم ١٣٨٣ هـ .

والوسائل » ، وتكلّم عنها علماء الاصول من السّنة والشيعة بعنوان : « تزاحم المهم والأهم » ، واتفقوا بكلمة واحدة على أنّ الأهم مقدم على المهم ، ارتكاباً لأقل الضّررين ، ودفعاً لأشد المحذورين ، وتقديماً للراجح على المرجوح ..

وهذه العناوين وما إليها تحكي التقية كما هي عند الإمامية ، ولا تختلف عنها إلا في الاسلوب والتّعبير ، وكانت التقية وما زالت ديناً يدين به كلّ سياسي في الشّرق والغرب ، حتّى المخلص الأمين .

وإذا سأل سائل : ما دام الأمر كذلك فلماذا عبر الشّيعة بلفظ التقية ، ولم يعبّروا بلفظ المقاصد والوسائل ، أو الغاية والواسطة ؟ .

الجواب :

إنّ العبرة بالمعنى ، لا باللفظ ، وقديماً قال العارفون : « النقاش في الاصطلاحات اللفظية ليس من دأب المحصّلين » .

ثانياً : إنّ علماء الشّيعة يأخذون — دائماً أو غالباً — ألفاظهم ومصطلحاتهم الشّرعية من نصوص الكتاب والسنة ، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى بمادة الإتقاء ، كما تدلّ الآية التالية :

ومهما يكن ، فقد استدل الإمامية بالآية ٢٨ من سورة آل عمران : « لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ إلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ». فالآية صريحة في النّهي عن اتخاذ الكافرين أولياء إلا في حال الخوف واتقاء الضّرر والأذى،واستدلوا بالآية ١٠٦ من سورة النّحل : « مَنْ كَفَرَ بالله مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمان » .

قال المفسّرون : إنّ المشركين آذوا عمّار بن ياسر ، وأكرهوه على قول السّوء في رسول الله ، فأعطاهم ما أرادوا .. فقال بعض الأصحاب : كفر عمار ، فقال النبي (ص) « كلا ، إنّ عمّار يغمره الإيمان من قرنه إلى قدمه » .. وجاء عمّار ، وهو يبكي نادماً آسفاً ، فمسح النّبي عينيه ، وقال له : لا تبك إن عادوا لك ، فعد لهم بما قلت .

واستدلّوا أيضاً بالآية ٢٨ من سورة المؤمن : « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ » . فكتم الإيمان ، وإظهار خلافه ليس نفاقاً ورياءً ، كما زعم من نعت التقية بالنّفاق والرياء . وبالآية ١٩٥ من سورة البقرة : « ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلِكَةِ » .

ومن السّنة استدلوا بحديث « لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ » وحديث : « رُفِعَ عَنْ أُمّتي تِسْعَةُ أشْيَاءٍ : الخَطَأ والنّسْيَانُ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ ، وَمَا لا يَعْلَمُونَ ، وَمَا لا يُطِيقُونَ ، وَمَا اضْطُرّوا إلَيْهِ ، والطّيَرَةُ ، والحَسَدُ ، والوَسْوَسَةُ في الخَلْقِ » . والحديثان مرويان في كتب الصّحاح عند السّنة . وقول الرّسول الأعظم : « وَمَا اضْطُرّوا إليهِ » صريح الدّلالة على أنّ الضّرورات تبيح المحظورات .

وقال الغزالي في الجزء الثالث من إحياء العلوم : « باب ما رخص فيه من الكذب » : « إنّ عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان القصد سفك دم مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب » .

وبعد أن نقل الرّازي الأقوال في التقية ، وهو يفسر قوله تعالى : « إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » ، قال : « روي عن الحسن أنه قال : التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة ، وهذا القول أولى ، لأنّ دفع الضّرر عن النّفس واجب بقدر الإمكان » .

ونعى الشّاطبي في الجزء الرّابع من الموافقات ص ١٨٠ على الخوارج

« إنكارهم سورة يوسف من القرآن ، وقولهم بأنّ التقية لا تجوز في قول أو فعل على الإطلاق والعموم » .

وقال جلال الدين السّيوطي في كتاب « الأشباه والنّظائر » ص ٧٦ : « يجوز أكل الميتة في المخمصة ، وإساغة اللقمة في الخمر ، والتلفّظ بكلمة الكفر ... ولو عمّ الحرام قطراً . بحيث لا يوجد فيه حلال إلا نادراً فإنّه يجوز استعمال ما يحتاج إليه » .

وقال أبو بكر الرّازي الجصّاص – من أئمة الحنفية – في الجزء الثاني من كتاب « أحكام القرآن » ص ١٠ طبعة سنة ١٣٤٧ هـ . قوله تعالى : « إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً » . يعني أن تخافوا تلف النّفس ، أو بعض الأعضاء فتتقوهم بإظهار الموالاة من غير اعتقاد لها ، وهذا هو ظاهر ما يقتضيه اللفظ . وعليه الجمهور من أهل العلم ، وقد حدّثنا عبد الله بن محمد بن إسحاق المروزي عن الحسن بن أبي الرّبيع الجرجاني عن عبد الرزاق عن معمّر عن قتادة في قوله تعالى : « لا يَتّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكافِرينَ أولِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ » قال : « لا يحل لمؤمن أن يتخذ كافراً ولياً في دينه » وقوله تعالى : « إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً » ، يقتضي جواز إظهار الكفر عند التقية ، وهو نظير قوله تعالى : « مَنْ كَفَرَ بالله مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنّ بِالإيمانِ » وفي الجزء الثالث من السيرة الحلبية ص ٦١ مطبعة مصطفى محمد : « لما فتح رسول الله خيبر قال له حجاج بن علاط : يا رسول الله إنّ لي بمكة مالاً ، وإنّ لي بها أهلاً ، وأنا أُريد أن آتيهم ، فأنا في حلّ إن أنا نلت منك ، وقلت شيئاً، فأذن له رسول الله أن يقول ما يشاء » .

وهذا الذي قاله صاحب السّيرة الحلبية عن النّبي (ص)،ونقله الجصّاص

إلى الجمهور من أهل العلم هو بعينه ما تقوله الإمامية ، إذن القول بالتقية لايختص بالشّيعة دون السّنة .

وقصة نعيم بن مسعود الأشجعي ، وإظهاره الشّرك بأمر النّبي يوم الخندق ليدس بين المشركين واليهود أشهر من أن تذكر .

ولا آدري كيف استجاز لنفسه من يدعي الإسلام أن ينعت التقية بالنّفاق والرياء ، وهو يتلو في كتاب الله،وسنّة نبيّه ما ذكرنا من الآيات والأحاديث وأقوال أئمة السّنة ، وهي غيض من فيض مما استدلّ به علماء الشّيعة في كتبهم ؟ . وكيف تنسب الشّيعة إلى الرياء ، وهم يؤمنون بأنّه الشّرك الخفي ، ويحكمون ببطلان الصّوم والصّلاة والحج والزّكاة إذا شابتها أدنى شائبة من رياء ؟ ..

وأود أن أوجه هذا السؤال لمن نسب الشّيعة إلى النّفاق والرياء من أجل التقية : ما رأيك فيمن قال — من علماء السّنة — إنّ جبريل ليلة أسري بالنبي إلى السّماء جاءه بقدحين : أحدهما من لبن ، وآخر من خمر . وخيّره بين شرب أيّهما شاء (كتاب الفروق ج ٢ ص ١٢ طبعة سنة١٣٤٥ وصحيح البخاري ج ٦ باب سورة بني إسرائيل) .

وأيضاً ما رأيك فيمن أفتى — منهم — بأنّ من ترك الصّلاة عمداً لايجب قضاؤها ، ومن تركها نسياناً يجب عليه أن يقضي .. (كتاب نيل الأوطار للشوكاني ج ٢ ص ٢٧ طبعة سنة ١٩٥٢) .

وغريبة الغرائب أن يعذر المفتي على فتواه التي خالف بها الإجماع والقواعد والنّص والقياس الجلي السّالم عن المعارض ، ولا يعذر من يفتي بالتقية مستنداً إلى كتاب الله وسنة رسوله .. (الفروق للقرافي ج٢ ص١٠٩).

وبالتالي،فإنّ التقية كانت عند الشيعة حيث كانت العهود البائدة، عهد

الضّغط والطّغيان ، أما اليوم حيث لا تعرّض للظّلم في الجهر بالتشيع فقد أصبحت التقية في خبر كان .

في عام ١٩٦٠ أقامت الجمهورية العربية المتحدة مهرجاناً دولياً للغزالي في دمشق وكنت فيمن حضر وحاضر ، فقال لي بعض أساتذة الفلسفة في مصر فيما قال : أنتم الشّيعة تقولون بالتقية .. فقلت له : لعن الله من أحوجنا إليها .. إذهب الآن أنّى شئت من بلاد الشّيعة فلا تجد للتقية عندهم عيناً ولا أثراً . ولو كانت ديناً ومذهباً في كلّ حال لحافظوا عليها محافظتهم على تعاليم الدّين ومبادىء الشّريعة ؟ .

الشيعة الإمامية والتقية
بين الشيخ أبو شقرا والشيخ مغنية

باريس والصحف العربية :

تعوّدت منذ سنوات أن أُخصّص ساعة معينة من مساء كلّ يوم، لشرب الشّاي وقراءة الصّحف، وصادف ساعة يومي الذي أسطر فيه هذه الكلمات، أن أقرأ كلمة للاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في جريدة الأهرام ٢٠ –٦– ١٩٧٧ ، قال فيها من جملة ما قال :

« إن باريس اليوم تفتح ذراعيها للصحفيين الذين كانوا يصدرون صحفاً في بيروت ، ولم يعد لهم مكان .. لأنّ بيروت لم تعد قادرة على احتمال الحريّات التي تمتّعوا بها من قبل » .

فتنهدت لاهفاً آسفاً لهذه المأساة ، وساءلت نفسي : هل من حياة بغير حرية ؟. وتركت الإهرام .

في مجلة الوطن العربي :

إلى مجلّة الوطن العربي التي تصدر في باريس ، وقرأت في العدد ١٧

الصادر بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٧٧ من جملة ما قرأت ، حديثاً لسماحة الأخ الفاضل الشّيخ محمد أبو شقرا شيخ عقل الطّائفة الدرزية.وقد جاء فيه:

« الشّيعة أنفسهم اليوم لا يكشفون كلّ شيء .. هناك في الدّين مايسمّى التقية والسّترة لأنّ الإضطهاد التركي كان يضطهد غير السّنة » .

وما من شك أنّ هذا القول أو هذه النّسبة لم ترد من سماحة الشّيخ في معرض النّقد أو الطّعن – كما يبدو – من سياق الكلام حيث لا رفض ولا انفعال .. ولكنّه حكم أو وصف أو حكاية ، وكلّ ذلك يستدعي التثبّت والإحاطة بالموضوع من شتّى جهاته ومع قيوده وحدوده .. أما الإطلاق هنا فهو تحكّم ، وليس بحكم ! .

أبداً .. لا شيء بخفيّ ومستور عند الشّيعة الإمامية لا اليوم ولا قبل اليوم .. كيف وهم يعلنون بصراحة : أن نظر العقل ودليله هو المعيار الأول والأخير لكلّ ما يدينون به ويؤمنون .

وتلك كتبهم الإسلامية تُعدّ بالالوف لا بالمئات . وتعرض في شرق الأرض وغربها في أصول الدّين وفروعه ، وفي التّفسير والحديث والفلسفة والأخلاق . وكل ما يمت إلى الدّين بصلة فضلاً عن الإعلان في المآذن ومن على المنابر . وأيضاً فضلاً عن الجامعات الدّينية في إيران والعراق حتّى التقيّة تحدّثوا عنها وعن شروطها مطوّلاً ومفصّلاً ، ووضعوا فيها العديد من الرسالات . وأتمنّى لو قرأ الشّيخ رسالة الشّيخ الأنصاري المطبوعة في آخر كتاب المكاسب . أبعد هذا يقال أو يظن أو يحتمل بأنّ الشيعة الإمامية باطنيّون ؟.

التقية عند الشيعة بقيودها وحدودها :

والتقية عند الشيعة الإمامية هي حكم عقلي بديهي يحمل في طبيعته السّبب الكافي لصحته وحجته تماماً كما تقول : على الإنسان أن لا يتعرض

للأضرار والأخطار . ولا يلقي بيديه إلى التّهلكة . ومن هنا اتفقت على إقرار التقية والقول بها جميع الشّرائع السّماوية والأرضية . وإليك الإبانة بإيجاز :

أولاً : لا تقية إطلاقاً إلا عند خوف الضّرر على النّفس أو العرض أو المال حيث لا نقش بلا عرش . ثانياً : لا يسوغ بحال التقرب إلى طاغية قويّ على حساب الآخرين . ثالثاً : يجب النّضال والجهاد والتّضحية بكلّ عزيز ضدّ المعتدي الأثيم ، ومن نسب إلى الشّيعة الإستسلام للضيم مداراة وتقية فقد باهت وافترى .

هذه إشارة سريعة خاطفة إلى التقية عندنا . ومنها يتبيّن لنا أنها ليست من الاصول المستقلّة برأسها ، وإنّما هي من العوارض الطّارئة الّتي تبيح المحظورات عند الضرورة تماماً كقول الشّارع : إذا أضرّ بك الصوم فدعه. وبهذا نزل القرآن الكريم كقوله تعالى : « إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً — ٢٨ آل عمران » . وقوله : « إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمانِ — ١٠٦ النحل » . وقوله : « لا تُلْقُوا بِأيْدِيكُمْ إلى التّهْلُكَةِ — ١٩٥ البقرة » . وقوله : « وَقَالَ رَجُلٌ يَكْتُمُ إيمانَهُ أتَقْتُلُونَ رَجُلاً يَقُولُ رَبّي الله — ٢٨ غافر » . فضلاً عن الأحاديث المتواترة .

ونكتفي بهذا الإيجاز لضيق المقام ، ومن أراد التّفصيل والإطلاع على قول الأقطاب بوجوب التقية عن علماء السّنة مع المصادر الموثوقة — فليقرأ كتابنا « الشيعة في الميزان » ص ٤٨ — ٥٢ وهو معروض للبيع في مكتبات بيروت .

والتّحيات الزّاكيات لسماحة الأخ والصّديق الكريم القديم ورفيق الجهاد الشيخ محمد أبو شقرا مع الإخلاص والتقدير . وهو سبحانه المسؤول أن يمد في بقائه . ويزيده من نعمائه ، ويهدي الجميع إلى سواء السّبيل .

هل توجد علاقة بين الاشتراكية والإسلام

باستطاعة الإنسان أن يفهم الحقائق الطّبيعية . ويستغلّها لمصلحته . وله أن يضع لها ما يشاء من الأسماء . ويصفها بما يريد من الأوصاف . وليس له أن يشرع قوانين وأحكاماً . ثمّ يفسر الطّبيعة حسب قوانينه وأحكامه . كائناً من كان المشرّع . لأنّ التّشريع غير التّكوين . والنّواميس الطّبيعية غير الأحكام التّشريعية . فالكلام عن أقصى مدة الحمل . وعن المرأة الحامل هل تحيض ، أو لا تحيض . وما إلى ذلك ليس من مباحث التّشريع في شيء .

وقد صرح بهذه الحقيقة كثير من فقهاء المسلمين . وكرروها في كتب الفقه وأصوله لشتّى المناسبات . ويؤيدها قولهم : إنّ القدرة شرط للتكليف ، وإنّ قول : إفعل . ولا تفعل يستدعي استطاعة المكلّف على الفعل والتّرك . والنّواميس الكونية لاتدخل في قدرة المكلّف سلباً . ولا إيجاباً .

حقيقة التشريع :

وإذا تجاوزنا الأشياء الطبيعية إلى غيرها من الأفعال والعادات وجدنا المجال فسيحاً للتشريع سواءاً كان عرفيّاً أم برلمانيّاً ، والتّشريع البرلماني

إرادة أكثرية أعضاء المجلس ، والعرفي عادة الناس وتقاليدهم ، والإلهي إرادة الله سبحانه ، وقد حدّدته الآية الكريمة بأوجز وأبلغ تعبير « قل الله أذِنَ لَكُمْ أمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ » إذن ليس للتشريع بجميع أنواعه وجود مستقل في الخارج يلمس ويرى ، كوجود الطّبيعيات ، وإنما يوجد في عالم الإرادة والإعتبار ، وبهذا أمكن فيه التّبديل والتّعديل حسب مقتضيات الظّروف والمصالح .

التشريع رئيسي وتقريري :

القوانين على نوعين : رئيسية وهي التي يضعها المشرع ابتداء ، ولم تكن معروفة عند الناس، ولا مألوفة من عاداتهم ، وتقريرية إمضائية وهي عبارة عن تقرير المشرّع وإمضائه العادات المستحسنة .

والعبادات كالصّوم والصّلاة والحج أحكام رئيسية ، فالوحي وحده مصدر تشريعها ، والمرجع لبيان حقيقتها ، وليس لأيّ فرد من الناس . أو هيئة من الهيئات إثبات شيء منها أو نفيه .

الصحيح عند العرف صحيح عند الشرع :

أما المعاملات كالبيع والإجارة والشّركة ، وما إلى ذلك ممّا يقصد منه المنفعة الدّنيوية فجميع أحكامه تقرير وإمضاء لما عليه الناس ، وليس للوحي حقيقة تغاير الحقيقة العرفية الموجودة قبل الشّرع ، فانتقال المال من شخص إلى شخص لحصول نوع من التّراضي بينهما ، أو اشتراكهما في التّصرف بشيء خاص ، وتقسيم المنفعة بين الإثنين ، أو جعل أحدهما مديناً للآخر . وما إلى ذلك من المواضيع التي تختلف باختلاف نوع الإلتزام والتراضي . كل ذلك يرجع فيه إلى العرف ، لا إلى الوحي ، فالعرف هو الذي يحدّد

الأسباب ، أي العقود والموجبات ، ويحدد مسبباتها ، وهي الآثار الخاصة لكل عقد ، فليس للإسلام تشريع رئيسي ، واختراع جديد في هذا الباب ، وإنما أقر ، وأمضى ما عليه العرف . وأجاز كل معاملة يجريها الناس في زمانه ، وبعد زمانه[1] أجازها ببيان عام مثل قوله سبحانه: « أحَلَّ اللهُ البَيْعَ وأوْفُوا بالعُقُودِ .. ولا تَأكُلُوا أمْوالكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ إلاّ أنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَراضٍ » وقول الرسول الأعظم « الصّلْحُ جَائِزٌ إلاّ ما حلّلَ حَراماً، أوْ حَرّمَ حَلالاً » وقول الإمام الصادق (ع): « كلّ شيءٍ يَكُونُ للنّاسِ فيهِ الصّلاحُ مِنْ جِهَةٍ مِنَ الجهَاتِ فَهُوَ حَلالٌ » . وهذه تدل بجلاء على أنّ كلّ ما يسمى بيعاً وصلحاً ، أو أيّ عقد من العقود عند الناس فهو حلال وماض يجب الوفاء به في أيّ زمان أو مكان حصل ، في عهد المشرّع أو بعده ، في اللغة العربية ، أو الأجنبية . فمع وجود هذا الإذن العام ، والتقرير الشامل لكلّ معاملة لا نحتاج إلى أمر خاص من المشرع لتصحيح المعاملات المتداولة بين الناس .

أما نهي الإسلام عن بعض المعاملات كبيع السلاح للعدوّ المقاتل ، وإجار الدار للدعارة ، وما إلى ذلك فلأنّ هذه الامور محرّمة بذاتها ، فالنهي عن المعاملة بها نهي عنها بالذات . فكل معاملة صحيحة عند العرف هي صحيحة عند الإسلام إلا ما يتنافى مع المبادىء العامة ، أي ما حلّل حراماً ، أو حرّم حلالاً .

لقد تطورت الحياة بتطوّر وسائل الإنتاج ، وأصبح الفرق بين الحاضر والماضي ،كالفرق بين مطرقة الحداد ، والمصانع الكبيرة التي تدار بالكهرباء ، وكالفرق بين الثور والتراكتور ، فمن المحال أن تبلغ الحياة هذا الحدّ من

(١) المرزا حسين النائيني تقريرات الخونساري ص ١٠٤ و ١٠٥ طبعة ١٣٥٨ هجرية.

التّطوّر ، ويبقى النّظام الإقتصادي على ما كان عليه في بدء الإسلام . وهل بأستطاعة أحد أن يقول : إنّ منابع النّفط ، ومناجم الذّهب في الحجاز لو اكتشفت في عهد الرّسول الأعظم لاستمرّ الرّسول بعد هذا الإكتشاف في تطبيق النّظام الإقتصادي الذي كان قبله ! إذن أين التّجانس بين الحكم وموضوعه ، والإقتصاد ونظامه ؟ فمن الخير للإسلام ، والمسلمين أن نقول : إنّ كلّ ما فيه الخير والصّلاح يقرّه الإسلام ، وينهى عمّا فيه من الضرر والفساد .

وقد أكد هذه الحقيقة رجال من فقهاء السّنة والشّيعة الإمامية ،ففي رسائل ابن عابدين ج ٢ ص ١١٥ نقلاً عن المبسوط : أنّ الثابت بالعرف كالثابت بالنّص ، ثم ذكر الحديث المشهور « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » وقال المرزا حسين النائيني في تقريرات الخراساني ج ٢ ص ١٤٠ و١٤١ « المعاملات ثابتة عند عامة الناس قبل الشّرع والشّريعة ، وعليها يدور نظامهم ومعاشهم ، والشّارع قد أمضاها بمثل أحلّ الله البيع ، وأوفوا بالعقود ، فليست الملكية المنشأة بالبيع ، والزوجيّة المنشأة بالنكاح ، والتّسالم المنشأ بالصّلح من المختّرعات الشّرعية .. فهذه كلّها متداولة عند من لم يلتزم بشرع ولا شريعة كالدّهري والطّبيعي » .

لا رق في الإسلام :

وكلّما أمعنّا النّظر تجلّت لنا هذه الحقيقة أكثر فأكثر ، وبرزت أمام أعيننا شواهد ناطقة لا ريب في صدقها ووضوحها :

كان نظام الرّق موجوداً قبل أن تكون الدّيانة اليهودية والمسيحية ، وعندما جاء الإسلام كان أصحاب النّفوذ وكثير غيرهم يرون أن الرق ضرورة لا غنى عنها لحياة المجتمع ، وهاتان الدّيانتان لم يعارضا نظام الرق ،

فلم يجد الإسلام مندوحة لإلغائه دفعة واحدة ، فأوجد سبلاً شتّى للعتق وتحرير العبيد تؤدّي بالنّهاية إلى الغاء الرق كليّة ، وقد تذرّع الدّاعون إلى إلغائه بهذه السّبل ، وكانت خير عون لهم على تحقيق ما أرادوا .

وإنّنا على يقين لا يداخله شك بأنّ الرّسول الأعظم محمد بن عبدالله (ص) لو كان في عصرنا هذا الذي أُلغي فيه الرّق لم يدع إلى إعادته وبعثه من جديد ، ولو قامت في عصره ثورة ضدّ الإسترقاق لباركها وساندها. إنّ رسولاً بعث ليتمّم مكارم الأخلاق ، ويقول : « شرّ الناس من باع الناس » وإنّ ديناً رسالته نفي « الضّرر والضّرار » بشتّى أنواعه المادية والأدبية لا يمكن أن يرجّح الإسترقاق أو يدعو إليه .

زواج غير المسلمين :

في كتب الفقه للسّنة إنّ الأئمة ما عدا مالكاً قالوا : « إنّ أنكحة غير المسلمين صحيحة يقرّون عليها . وتلحقها جميع الأحكام والآثار »[1] . وروى الشّيعة عن أئمتهم « أنّ كلّ قوم يعرفون النّكاح من السفاح – الزنا – فنكاحهم جائز ، وأنّ من يدين بدين قوم لزمته أحكامه ، وأنّه لا يجوز قذف المجوسي بالزّنا والفجور مع أنّه ينكح أُمّه وأُخته ، لأنّ ذلك نكاح صحيح في دينه »[2] وفي كتاب الجواهر باب الزواج مسألة اختلاف الدّين « نحكم بصحة ما في أيدي غير المسلمين من النّكاح وغيره بمعنى ترتب الآثار عليه . وإن كان فاسداً عندنا »[3] .

---

(١) ميزان الشعراني ج٢ ص ٩٠ المغني ج٦ ص ٦١٣ طبعة ثالثة .

(٢) مقابس الأنوار ص ٣١٣ .

(٣) كتاب جواهر الكلام أعظم مرجع للشيعة الإمامية ألفه الشيخ محمد حسن من علماء القرن التاسع عشر .

واتفق الفقهاء على أنّ غير المسلم يملك الخمر والخنزير . ويحلّ له الإتجار بهما ، لأنّ ذلك جائز في دينه ، أما المسلم فلا يملكهما ، ولا يحلّ له الإتجار بهما ، لأنّ الإسلام نهى عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

إذن ليس للإسلام نظام اقتصادي خاص فرضه على أتباعه وغير أتباعه . أو على أتباعه خاصّة دون غيرهم ، غير أنّه نهى عن أشياء كأكل المال بالباطل ، والإعانة على الإثم . فإذا أجرى المسلم معاملة ما تستدعي شيئاً من المحرمات ، نهاه الإسلام عنها ، أما غير المسلم فيوكله إلى عقيدته وأحاسيسه ، ولو كان للإسلام نظام معين لفرضه فرضاً على كلّ من يشمله نفوذ الإسلام ودولة الإسلام كما هو الحال في سائر الحكومات والممالك تطبّق قوانينها على جميع رعاياها على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .

كتب الفقه :

أما الكتب التي وضعها الفقهاء للبحث عن المعاملات وأنواعها وتمييز صحيحها من فاسدها فإنّها بيان للمعاملات المعروفة عند الناس ، أي لتشخيص الموضوع العرفي . وبعد أن يتحقّق لدى الفقيه هذا الموضوع يبحثه من جهة شرعية ، أي أنّ هذه المعاملة العرفية هل ورد نهي عنها في الشريعة ؟ وهل تستدعي الظّلم والإعانة على الإثم كي تحرّم شرعاً؟ أو أنها لا تستدعي شيئاً من ذلك فتكون حلالاً . وهذه الجهة هامة جداً لا بد من مراعاتها في كلّ عمل .

ويرى البعض أنّ في الكتاب والسّنة بياناً لجميع القضايا الإقتصادية وغير الإقتصادية ، فأيّ مسألة إذا لم يرد فيها نصّ خاصّ فبالإمكان استخراج حكمها من النّصوص العامة . وبقيت على تقليد هذا القول أمداً طويلاً ، ثم عدلت عنه حين تبيّن لي أنّ أكثر عمومات الكتاب والسّنة

لم تتعرض للمعاملات إلا بطريقة إجمالية عامة ، بحيث لا تصلح بحال أن تكون نظاماً شاملاً مفصّلاً ، ولا يستفاد منها سوى إمضاء كلّ معاملة تتفق والصّالح العام ، والنّهي عمّا يتنافى ،وأنها تفيد قوله سبحانه: « جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَنَاكِبِهَا ، وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وقَوْلَهُ : « كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ ، وَلاَ تَطْغَوْا فيهِ ». فالمراد منها وجوب السير على الصّراط السّوي ، والعمل ضمن المصلحة، أما تحديد هذه المصلحة ، وكيف تنفذ فذلك يعود إلينا نحن دون سوانا ، ولو فسّرنا مثل هذه العمومات بأكثر من ذلك لحمّلنا ظاهر الكتاب والسّنة ما لا يحملان . خذ إليك مثلاً بحثت الحكومة اللبنانية تعديل قانون الإنتخاب وتقسيم الجنوب وبيروت والبقاع إلى دوائر فهل ننتهي إلى النتيجة الحاسمة إذا رجعنا إلى قوله سبحانه: « وَشَاوِرْهُمْ في الأمْرِ » ولوفعلنا هذا لكنّا كمن قال : إنّ هذا البيت .

رجل علّق الطّلاق بشهر قبل ما بعد قبله رمضان

يشتمل على مئة ألف مسألة[1] وهل لأحد أن يقول : إنّه يستخرج قانون البلديّات والبناء والآثار والمهاجرين والإدارة العامة . وما أشبه من عمومات الكتاب والسّنة ؟

من هنا يتبيّن أنّ الإسلام يترك الناس يختارون المعاملة التي يرون على شريطة أن لا تحلّل ما حرّم الله ، أو تحرّم ما أحلّ ، فكما أنّ الإسلام لم يفرض على الناس نوعاً خاصّاً من الزراعة والصناعة كذلك لم يفرض عليهم نوعاً معيّناً من أنظمة الإقتصاد . كان الحرث في الزمان الأول على الحيوان ، وكان الحصاد والغزل بيد الإنسان فتطورت هذه إلى ما هي عليه اليوم ، فهل في تطورها ما يتنافى مع الإسلام ودعوته ؟! بل هو عين ما يدعو إليه

(١) رسائل ابن عابدين ج ١ ص ٢٥٥ .

الإسلام ، وكذا الحال بالقياس إلى كل ما من شأنه أن يرفع من مستوى الحياة ، ويحسّن من أحوال النّاس ، فاذا رأوا أنّ من صالحهم تحديد الملكية الزراعيّة ، وحصر التجارة في نطاق خاص ، فالشّرع يمضي هذا الرأي. ويوجب العمل به . كما يوجب العمل بكلّ تشريع يحارب الفقر والبطالة .

وليس من شك أنّ الإسلام يقرّ كلّ جديد مفيد يحقّق صالح الجماعة والفرد ، قال الإمام جعفر الصادق (ع) : «كلّ ما فيه صلاح للنّاس بجهة من الجهات فهو جائز» . وهذا أصل من أُصول التشريع عند أئمة المذاهب كافة . فتأميم الكهرباء والماء وخطوط النقل والتعليم والطب ، وما إلى ذلك مما فيه الخير العام جائز يقره الإسلام ويباركه ، لأنّ الإسلام أقرّ وأمضى جميع أقوال النّاس وعاداتهم وأنظمتهم ما وجد منها في عهد الرّسالة . وما يوجد بعدها ما دام لا يخرج عن القواعد العامة لا يحلّل الزنا والسّرقة والخيانة والظّلم والغشّ والخمر والميسر ، وما إلى ذاك وأي نظام اقتصادياً كان أم سياسيّاً أم اجتماعيّاً تفرضه فئة مستثمرة فهو محرّم في نظر الإسلام.

فالإسلام لا يبيح أن تعيش الجماعات والأفراد في ظلّ أنظمة تضرهم ولا تنفعهم ، بهذا النّظر البصير العميق تكون الشّريعة الإسلامية شريعة الحياة بحق تدوم وتبقى بدوام الحياة وبقائها ، فالشريعة التي لا تستند إلى عقيدة أتباعها وإيمانهم بأنّها وضعت لمنفعتهم ورفع مستوى حياتهم لاتكون شريعة لهم إلا بالإسم ، إذ يعيشون عملياً بمعزل عنها ، حتى هذا الإسم يكون عرضة للزوال والإنهيار إذا ظهرت شريعة أصلح وأنفع ، فالتشريع وحده لا يخلق الإيمان في النّفوس ، بل الإيمان بالمصلحة يخلق التّشريع . وإذا آمن قوم في الزّمان السّالف بنظام لأنّه يتّفق وأوضاعهم فإنّ هذا الإيمان لا تتوارثه الأجيال المتعاقبة إذا تغيّرت الأوضاع ، وتبدلت الأحوال. ومن هنا كان نسخ الشرائع بعضها لبعض ، واستبدال حكم بحكم في الشريعة الواحدة ، كلّ ذلك رغبة في المصلحة والمنفعة الدّنيوية .

وبهذا التفسير يظهر فضل الشّريعة الإسلامية ، ومرونتها ، ويصدق القول : أنّ التّشريع الإسلامي يكفل حاجات المجتمع في كل زمان ومكان، أي يقرّ الأحكام الوضعية التي تكفل هذه الحاجات ، وإذا تنافى حكم وضعي مع الصّالح العام يكون مشرعه والحاكم به ، ومنفذه ممّن عناه الله بقوله : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أنْزَلَ الله فأولئِكَ هُمُ الكَافِرون» أما القول : إنّ للإسلام نظاماً ، وإنّ هذا النّظام هو الإشتراكية أو الديموقراطية أو الرأسمالية فاعتباط وتمحل ، وماذا نصنع لو أثبتت التجارب فساد هذه الأنظمة كلاّ أو بعضاً ، أو ظهر في المستقبل ما هو خير منها ، فهل نعدل عن التفسير الأول . ونفسّر الإسلام بالفلسفة الجديدة ، ونقول كلّ يوم بقول ! فخير ألف مرة للإسلام أن نقول : إنّ كل نظام عادل قديماً كان أو حديثاً يرفع من مستوى الحياة يحارب الفقر والجهل والمرض فهو متفق مع الإسلام وأصول الإسلام ولا يضر بأحد .

الطوارئ غير المتوقعة بعد العقد *

بحث مقارن بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

هذه مسألة هامّة كثيراً ما تمس الحاجة إلى معرفة حكمها . وآراء المتشرعين بها ، وليس لها ذكر في مجموعة القوانين اللبنانية ، كما أنّي لم أجد لها فيما لديّ من كتب الفقه الإسلامي بحثاً مفصّلاً تعرف منه جميع الحالات والأقسام المتفرعة عن هذه المسألة . وتعرض للقاضي في أغلب الأحيان ، ويجد المتتبّع لكلمات الفقهاء إشارة أو تصريحاً يتعلّق بالموضوع . ولكنّه لا يفي بالغرض المطلوب .

وعلى أيّ الأحوال فقد أوضحت القوانين الحديثة ، والشريعة الإسلامية مهمّة القاضي إذا لم يجد نصاً تشريعيّاً ، فأوجبت عليه — والحالة هذه — أن يجتهد ويعمل برأيه على أساس العدل وعدم الإجحاف بأحد مراعياً القواعد الكليّة ، والاصول العامة للتشريع التي هدف المشرّع من ورائها إلى احترام حقوق الأفراد ، وصيانة أموالهم ، ودفع الضرر عنهم ، أي أنّ القاضي مع فقدان النّص الخاص من المشرّع يطبّق النّص العام للقانون

---

* نشرته مجلة المحامي اللبنانية في العدد الحادي عشر من السنة السادسة عشرة .

الطّبيعي ، والعدالة الإجتماعية،ويرتكز بحثنا في الموضوع على هذا الأساس، أساس مراعاة النّصوص الخاصّة مع وجودها ، ومع عدمها نراعي النصوص العامة . ونرى لزاماً — قبل كلّ شيء — أن نلخص أقسام العقد ، وأي قسم منه يجب الوفاء به ؟ وما هو السبب الباعث على وجوب الوفاء والإبرام ؟.

لا بدّ لكلّ عقد من وجود متعاقدين ، وهما البائع والمشتري في عقد البيع ، والمؤجر والمستأجر في عقد الإجارة ، والوكيل والموكل في الوكالة، والوديع والمودع في الوديعة ، وهكذا ، والأقسام عديدة ومتنوعة :

١ — منها ما لا يستلزم بذاته أخذاً ولا عطاءً ، كالوكالة الّتي تصح بأجرة ، وبغير أجرة ، ولا تفيد شيئاً أكثر من الإذن في التّصرّف والمحافظة والمدافعة والمرافعة ، ومثلها الوديعة من حيث عدم استلزامها الأخذ والعطاء بداعي التّمليك ، وهذا النّوع لا يجب الوفاء به ، فيجوز لكلّ من الطرفين أن يحلّ العقد ويفسخه مستغنياً عن موافقة الطّرف الثاني .

٢ — ومنها ما يستلزم العطاء دون الأخذ ، كالهبة والوصية [1] وهذا كسابقه لا ينقضي بذاته إلزاماً ووجوب الوفاء ، إذ يجوز للواهب أن يرجع عن هبته قبل أن يتسلمها المتّهب — أي قابل الهبة — كما يجوز لهذا الأخير أن يردّ الهبة . ولو بعد قبضها واستلامها، وكذا يجوز للموصي أن يرجع عن وصيته ما دام فيه الرّوح ، وللموصى له أن يردّ الوصية ، فكلّ واحد منهما له أن يحلّ العقد ، ويرفع عنه اليد ، سواء رضي الآخر أم لم يرض .

٣ — ومنها ما يستلزم الأخذ والعطاء معاً، كعقد البيع والإجارة،وما إليهما من العقود الّتي تقتضي المبادلة والمعارضة من الطرفين ، فالبائع يأخذ ،

(١) تدخل الوصية في باب العقود بناء على أن قبول الموصى له شرط في صحة الوصية .

ويعطي ، يأخذ الثمن من المشتري ملزماً نفسه بالوفاء متعداً بتسليم المثمن ، والمشتري يأخذ ويعطي ، يأخذ المثمن من البائع ملزماً نفسه بالوفاء متعهداً بتسليم الثمن كاملاً فالمتعاقدان – والحالة هذه – متساويان أخذاً وعطاءً . متماثلان إلزاماً والتزاماً ، وإدراكاً واختياراً ، والنتيجة الحتمية لهذه المساواة هي أن لا يستقل أحد الطرفين بالسّلطة على هدم العقد أوتعديله من غير موافقة الطرف الآخر إلا لظروف استثنائية بالغة الأهمية ، وهذه الظّروف موضوع البحث ،فالكلام هنا ينحصر فيما إذا طرأت حوادث استثنائية بعد العقد اللازم ، إذاً لا يدخل في بحثنا إلا ما خص القسم الثالث من العقد .

وليكون الباحث على بينة من أمره عليه أن يعرف – قبل كلّ شيء – السبب الموجب للزوم هذا العقد ، ووجوب هذا الوفاء به ، فيعلم المصدر الأول الذي يستمد منه العقد قوته ومناعته ، وقد تعددت المذاهب في هذا المصدر ، والمهم منها مذهبان :

ويتلخّص الأول : بأنّ العقود وجميع الأحكام والقوانين تستمدّ قوتها من الحق الطبيعي الثابت،فالعقد – مثلاً – إذا تمّ بين المتبادلين،وهما في حالة الإرادة والإختيار يتصف باللزوم ، وهذا اللزوم وصف طبيعي للعقد لا يتغير ولايتبدل بتبدّل الأوضاع والأحوال ، فمثله مثل سائر السّنن الطبيعية الّتي لا تتغير بتغيّر الأزمان والأجيال ، فما دامت الطبيعة باقيـــة ، فسننها جارية . وما دام العقد موجوداً ، فاللزوم مستمر ، ولا سبيل إلى رفعه إلا بارتفاع العقد ، وسبب وجود العقد إرادة المتعاقدين معاً فهدمه لا يكون إلا بإرادتهما معـــاً .

ولكنّ الشرائع الحديثة قـــد أعرضت عن هذا المذهب ، واعترفت بالمذهب الثاني ، وهو أنّ العقود وجميع القوانين تستمد قوتها من القيم الأخلاقية ، والنظام العام ، فالعقد الواقع بين اثنين إنما يجب الوفاء به ما دام

متلائماً مع النّظام والمثل الأخلاقيـــة ، فإذا كان إبرام العقد مضراً بأحد الطّرفين ، أو مخلاً بالآداب العامة ، أو مستازماً للاحتكار والاستثمار غير المشروع ، وما إلى ذلك مما يتولد منه ضرر عام أو خاصّ بأحد ركني العقد ، ففي مثل ذلك تنتفي عن العقد الحصانة والمناعة، ويسقط عن درجة الإعتبار واللزوم .

على هذا يرتكز بحثنـــا عن المسألة الّتي نحن بصددها . وهي أنّ وقوع الحوادث الإستثنائية بعد أن يتم العقد بين المتبايعين هل يؤثر على مناعة العقد وقوّته . فتجعله جائزاً بعد أن كان لازماً . أو أنّه لا أثر لتلك الحوادث. بل يبقى العقد على لزومه . ولا يجوز للمشتّري ولا للقاضي حلّ العقد وتعديله على الرغم من هذا الحادث الهام .

ويمكن أن نحصر أقسام مسألتنا فيما يلي :

١ ــ أن يطرأ الحادث بعد العقد والقبض معاً ، أي بعد أن يتسلم المشتّري المبيع الّذي جرى عليه العقد يقع الحادث ، وفي هذه الحال لا يرجع أحد المتعاقدين على الآخر مهما كان نوع الحادث،سواء أكان صعوداً أم هبوطاً في الأسعار . أم تلف المبيع أم حدث فيه عيب ، لأنّ الحادث طرأ بعد أن صار المبيع في ملك المشتّري . وبعد أن مضى العقد بما فيه (١) .

٢ ــ أن يطرأ الحادث بعد العقد وقبل القبض،ولكنّ المبيع كان موجوداً بكامله عند البائع حال وقوع العقد ، وهذا القسم فيه تفصيل .

تارة يقع البيع على شيء خاص ... على هذا البستان ، أو هذا الثوب الخاص من القماش المتميز عن سواه ، وقبل أن يتسلم المشتّري المبيع يقع

---

(١) هناك امور توجب الخيار بعد القبض ، كخيار الحيوان ضمن ثلاثة أيام .

الحادث ، فإن لم يغيّر وقوع الحادث شيئاً من المبيع سوى أنّه أوجب ارتفاع ثمنه بسبب الحرب – مثلاً – أو أوجب هبوطه لسبب من الأسباب، فإن كان الأمر كذلك يبقى العقد على شريعته ولزومه ، فيجب على كلّ من المتعاقدين الوفاء به . أما الغبن الحاصل بعد العقد على البائع بسبب الإرتفاع ، أو على المشتري بسبب الهبوط فلا أثر له ، لأنّ العبرة بالغبن حال التعاقد لا بعده في هذه الحال، فلو كانت المساواة متحققة عند البيع ثم طرأت الزّيادة والنقصان بعد البيع وقبل القبض لا يوجب ذلك في العقد بطلاناً ولا خياراً [1] .

وإن كان الحادث الطارىء قهريّاً ، كالفيضان والحريق يسببان تلف المبيع ، ومثل ذلك لو سرق المبيع سارق لا يرجى عودته ، ففي هذه الحال يبطل العقد ، وليس للبائع أن يطالب المشتري بشيء ، لأنّ قدرة البائع على تسليم المبيع لمشتريه شرط في صحّة العقد ، وقد عجز عن القيام بهذا الشرط ، بسبب التّلف أو السرقة [2] .

وتارة لا يقع البيع على شيء خاص متميز عن غيره بالذات ، بل يتفق الطرفان على شيء كلي معلوم بالأوصاف .. على أطنان من الحنطة أو أثواب من القماش – مثلاً – وكانت الكمية المتّفق عليها موجودة بكاملها عند البائع حين البيع ، وقبل أن يتسلمها المشتري حدث حادث غير متوقع فيبقى العقد – والحالة هذه – على ما كان عليه من اللزوم ووجوب الوفاء . سواء أكان الحادث خاصّاً أم عاماً ، خاصّاً كما لو احترقت أو سرقت الكميّة الموجودة عند البائع ، ولا أثر لذلك ، لأنّ العارض إنما طرأ على مال البائع خاصة . ولا دخل للمشتري ولا لغير المشتري ، فيجب على البائع أن يشتري الكمية

---

(١) كتاب المكاسب الشيخ الأنصاري باب خيار الغبن .

(٢) كتاب المغني لابن قدامة من السنة ج٤ طبعة ثالثة ص ١٠٤ وما بعدها ، وكتاب مكاسب الأنصاري من الشيعة باب القبض .

من السّوق ويسلّمها للمشتري وكذا إذا كان الحادث عامّاً، كما لو ارتفعت الأسعار بسبب الحرب ، لأنّ البائع لم يتضرر بسبب الإرتفاع ، حيث لم يكلّف بشراء المبيع من الخارج ، لوجوده عنده ، كما هو الفرض .

أن يتّفق المتعاقدان على شيء معلوم بثمن معين . ولم يكن الشيء المتفق عليه موجوداً عند البائع حال البيع ، ولكن البائع ينوي من وراء هذا الاتفاق أن يشتري ما اتفقا عليه . ويسلّمه المشتري ، كما لو اتفق أحد التجار مع صاحب معمل نسيج أن يسلّمه كمية من القطن ، أو مع صاحب مصنع صابون كميّة من الزيت بثمن معين على أن يشتريها أيام الموسم . ويسلّمها في حينه إلى الطّرف الثاني . ثم يطرأ حادث عام غير متوقّع . ولا بد في مثل ذلك من التفصيل .

فإن كان الطّارىء من نوع القوّة القاهرة . والآفة السّماوية . كالمحل يعمّ البلاد التي يقيم فيها المتعاقدان . ويسبب فقدان النوع الّذي جرى عليه العقد . أو يجعله عزيزاً نادراً . إن كان الأمر كذلك فلا يجب الوفاء بالعقد . ولا يلزم البائع أن يأتي بالمبيع من بلاد نائية كي يسلّمه للمشتري ، وخاصّة إذا كانت الخسارة عليه فادحة[1]

وإن كان الطّارىء من نوع ارتفاع الأسعار . لأجل الحرب فتارة يشتري البائع الشيء المتفق عليه بالأسعار الّتي كانت حال العقد ، أي قبل الإرتفاع . ولكن قبل أن يقبض المشتري المبيع حصل الإرتفاع . وفي مثل هذه الحال لا يجوز للبائع حل العقد وفسخه ، لأنّه لا يتولّد من لزومه تضرر البائع ، حيث أنّه اشترى بالثمن الذي كان يتوقعه حين الإتفاق ، فغلاء الأسعار لم يؤثر شيئاً بالنسبة إليه ، فأشبه ما لو كان المبيع موجوداً حين البيع .

وتارة ترتفع الأسعار قبل أن يشتري البائع شيئاً مما تعهّد به ، وفي مثل

---

(١) كتاب الجواهر باب بيع السلم .

ذلك إن أمكن تعديل العقد تعديلاً يجمع بين مصلحة الطرفين ، عدّله القاضي ، وألزمهما بمؤدّى التّعديل ، وإن تعذّر الجمع بين المصلحتين فسخ العقد من أساسه ، والقاضي وحده يقدّر إمكان أو تعذر الجمع بين المصلحتين ، فيراعي الظروف والمناسبات وبحسبها يعدّل العقد أو يهدمه .

وما ذكرناه يتّفق مع المادة ١٤٧ من القانون المدني المصري الّتي نصّت على أنّ « العقد شريعة المتعاقدين . فلا يجوز نقضه ولا تعديله إلا باتفاق الطرفين ، أو للأسباب الّتي يقرّرها القانون » .

ومع ذلك إذا طرأت حوادث استثنائية هامة لم يكن في الوسع توقعها وترتب على حدوثها أنّ تنفيذ الإلتزام التعاقدي . وإن لم يصبح مستحيلاً صار مرهقاً للمدين بحيث يهدده بخسارة فادحة ، جاز للقاضي تبعاً للظروف ، وبعد الموازنة بين مصلحة الطّرفين أن يرد الإلتزام المرهق إلى الحدّ المعقول . ويقع باطلاً كل اتفاق على خلاف ذلك ، فهذه المادة وإن لم تنص بلفظها على ما فصّلناه من الفرق بين حدوث الطّارىء بعد القبض ، وحدوثه قبل القبض من جهة ، وبين وجود المبيع عند البائع حين البيع ، وعدم وجوده من جهة ثانية ، لكنّها لا تتنافى مع هذا التّفصيل . لأنّ المادة المذكورة اعتبرت الموازنة بين مصلحة الطّرفين ، وكلامنا بجميع أقسامه يرتكز على هذا الأساس .

والمنقول : أنّ القضاء الإداري في فرنسا قد طبّق مبدأ الطّوارىء غير المتوقّعة على بعض الدّعاوى المعروضة عليه . مخالفاً في ذلك ما جرى عليه القضاء المدني الفرنسي .

الخلاصة :

إن وقع البيع على شيء خاص معيّن بالذّات متميّز عن غيره ،

وتلف قبل أن يقبضه المشتري ، فالتّلف في ملك البائع . وإن ارتفع ثمنه أو نزل فهو في ملك المشتّري ، سواء أكان ذلك قبل القبض أم بعده . وإن وقع البيع على شيء كليّ معلوم بالوصف ، فإن فقد بالمرّة أو عزّ وجوده ، لآفة سماوية كالمحل يبطل العقد . وإن ارتفع ثمنه قبل القبض ، ولكنّ المبيع كان موجوداً عند البائع حين البيع ، أو لم يكن موجوداً ، ولكنّه اشتراه قبل الإرتفاع ففي هذه الحال يجب الوفاء بالعقد . وإن لم يكن المبيع موجوداً عند البائع . وارتفع السّعر قبل الشّراء رجع الأمر إلى تقدير القاضي . وهو بدوره يعدّل العقد إن أمكن مراعاة مصلحة الطّرفين . ويفسخه مع عدم الإمكان .

لا عمل بلا علم

« قال رسول الله (ص) : مَنْ عَمِلَ عَلى غَيْرِ عِلْمٍ كانَ مَايُفْسِدُ أكْثَرَ ممّا يُصْلِحُ» .وقالَ الإمَامُ أميرُ المُؤْمِنِينَ : « العاملُ عَلى غَيْرِ بَصيرَةٍ كَالسّائِرِ عَلى غَيْرِ الطّريقِ ، لا يَزِيدُهُ سُرْعَةُ السّيرِ إلاّ بُعْداً » .

أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟

من الواضح والمؤكد أنّ الإنسان البالغ العاقل مسؤول أمام الله سبحانه عما حرّم عليه وأوجب ذكراً كان أم أُنثى . وقد سهّل جلّ وعلا طرق الهداية إلى المعرفة والعلم بشريعته وهي : الإجتهاد في الأحكام .

الاجتهاد في الأحكام :

١ – كتاب الله . والأحاديث الشّريفة . وإجماع العلماء . والعقل .

ومن البداهة أنّ هذه الأدلّة والاصول الاربعة لا يتفهّم ويتعقّل كلّ إنسان نصوصها وأسرارها وإيحاءاتها ودلالاتها المتعدّدة ، وترجيح بعضها على بعض عند التّعارض والتّصادم .. أبداً لا أحد يستطيع الرّجوع إلى مصادر الشّريعة واستخراج الأحكام الإلهية منها إلا أهل العلم والخبرة الرّصينة العميقة .

ومعنى هذا أنّ استخراج الأحكام الشّرعية ، وقف خاصّ بالعالم المجتهد ، وحرام محرّم على غيره مهما كانت معرفته وثقافته ، وليس من شك أن ثمّة عقبات صعاب دون الوصول إلى الإجتهاد والإرتفاع إلى مرتبته . وأولى هذه العقبات أن يتفرّغ الإنسان إلى العلم ، ويُقبل بكلّه على الدرس والبحث السّنوات الطّوال .

ولذا أسقط سبحانه وجوب الإجتهاد في الأحكام على جميع المكلّفين وإلاّ انقطع النّظام معاشاً ومعاداً ، وأوجبه ، عظمت حكمته ، كفاية على القادرين وقال عز من قائل : « فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ — ١٢٢ التوبة » .

الاحتياط في الأحكام :

٢ — أن يأتي المكلّف بكلّ شيء يحتمل فيه الأمر والوجوب ولا يحتمل تحريمه إطلاقاً ، وأن يترك كلّ شيء يحتمل فيه النهي والحرمة ولا يحتمل وجوبه بحال ، ويسمّى هذا بالاحتياط ، وهو جائز في ذاته ولكنّه ليس من طرق العلم بالتكليف في شيء ، بل هو وسيلة للقطع واليقين بإطاعة الله وامتثال أمره ونهيه وفراغ الذّمة منهما والخروج عن عهدتهما .

ولكنّ الإحتياط في كلّ الأحكام النّظرية بحيث يستغني المكلّف عن

الإجتهاد والتقليد – ليس بالشّيء الهيّن واليسير لوجوه :

أولاً : إنّ المحتاط يجب أن يكون عالماً ومحيطاً بفتاوى المجتهدين والأقطاب القدامى والجدد وفاهماً هاضماً معانيها ومراميها ، وأيضاً يجب أن يكون عالمــاً بكيفية الإحتياط وحدوده وقيوده وإلا وقع في الشّبهات والمحرّمات من حيث لا يشعر ، ومن هنا اشتهر على الألسن : قد يكون الإحتياط بترك الإحتياط .

ثانياً : قد يحدث تعارض وتصادم بين احتياطين . ويجب التّرجيح بينهما وتقديم أحدهما على الآخر . وهذه العمليّة من وظيفة المجتهد وحده .

ثالثاً : قد يتعذّر الإحتياط بطبعه وذاته ولا يمكن العمل به بحال . ومن ذلك أن نشك في أنّ هذا الفعل : هل هو واجب شرعاً يحرم تركه ، أو محرّم لا يجوز فعله ؟.

رابعاً : أنّ ترك الإجتهاد والتّقليد من الأساس . والعمل بالإحتياط في كلّ شيء ، ضرب من الحرج والمشقة .

لكلّ هذه الأسباب وغيرها قال بعض الفقهاء : لا يجوز ترك الإجتهاد والتقليد إلى الإحتياط في جميع المسائل الفقهيّة النّظريّة .

التقليد :

٣ – والمراد بالتّقليد هنا التبعيّة التزاماً وعملاً بقول مجتهد معيّن . قال سبحانه : « فَاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ – ٤٣ النّحل » . وقال : « هذَا كِتَابٌ انْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ – ١٥٥ الأنعام » . أي فآمنوا به واعملوا بأحكامه ، وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) :

« وثقوا بالقائد فاتبعوه » أي التزموا بأقواله إيماناً وعملاً ، وهكذا المقلّد يُلزم نفسه — فيما بينه وبين الله — العمل بفتاوى وأحكام من يختاره للتّقليد.

وأيسر الطّرق لمعرفة أقواله وأقربها رسالته العمليّة ، ثم الأسئلة مشافهة أو كتابة أو مراجعة الوكيل المنصوب من قبله .

موضوع التقليد :

لا تقليد ولا اجتهاد في البديهيّات والمسلّمات من أحكام الدّين والشّريعة كوجوب الصّوم والصّلاة وحرمة الزّنا والرّبا ، ولا في الأحكام الشّرعية القطعيّة الإجماعية الّتي لا يحتاج العلم والجزم بها إلى جهد ودرس لوضوح أدلّتها والإتفاق عليها كوجوب العدّة على أرملة الميت والمطلّقة الشّابة بعد المقاربة ، وكون المصاهرة والرّضاع في بعض الحالات من أسباب تحريم الزّواج .

وأيضاً لا تقليد في تطبيق المعاني الكليّة على أفرادها الخارجيّة والتمييز بينها مثل أن يشك المقلّد : هل هذا الماء الخاص مطلق أو مضاف ؟ أو هذا السّائل المعيّن : هل هو خمر أو خلّ ؟ وأيضاً لا تقليد في تعيين وتفسير ما أراده المتكلم من كلامه وألفاظه — مثلاً — إذا وردت جملة في وصيّة الميت واختلف الورثة في تفسيرها وتعيين المراد منها ، فقال قائل منهم : أراد بها الوصيّة والتّمليك بعد الموت ، وقال آخر : بل أراد الإقرار والكشف عمّا ثبت سابقاً قبل الموت ، والفرق بعيد بين حكم الوصيّة وحكم الإقرار حيث يخرج هو من الأصل مع عدم التّهمة ، وتخرج الوصيّة بغير الواجب من الثلث ، لو حدث هذا ونحوه وجب الرّجوع إلى العرف في التّفسير والتّعيين ، وإذا فهم الوصيّة أو الإقرار رجعنا إلى المجتهد لبيان الحكم الشّرعي لهما .

وبكلمة إنّ المجتهد ينوب عن الإمام (ع) في بيان الحكم الشّرعي الكلّي للوصيّة وللإقرار وغيرهما ، ولا ينوب عن العرف في تعيين ماأراد المتكلّم من كلامه .

من هو المقلَّد والمرجع :

ويشترط في المقلّد والمرجع شرطان أساسيّان :

الأول — الإجتهاد . والمراد به هنا — بوضوح واختصار — المقدرة الكافية الوافية على استخراج الحكم الشّرعي من دليله المقرّر له .

ويحسن في المرجع ، وبخاصّة في هذا العصر ، أن تكون له خبرة بالنّاس والأشخاص حتّى لا تخدعه المظاهر ، وحسّ اجتماعي يعرف به المقاصد والأهداف ممّا يُوجه إليه من الأسئلة ، فقد اكتشفنا بالتّجربة أنّ بعض الأسئلة لا يقصد بها وجه الله سبحانه . بل ظاهرها الرّحمة وباطنها فيه العذاب ، فينبغي التبصّر بها والتنبّه لها .

وأيضاً يحسن في المرجع العام أن يلمّ بالأوضاع العامّة والأحداث المهمّة التي تفرض نفسها على العديد من المكلّفين وتُشكّل بالنّسبة إليهم ظرفاً خاصّاً يتصل بمعاشهم ومصيرهم .

ويُعرف الإجتهاد بالحسّ والممارسة والنّظر فيما يكتبه المجتهد ممّن هو أهل لذلك ، وأيضاً يعرف بشهادة مجتهدين عدلين ومن الإشتهار والشّياع في الأوساط العلمية الفقهيّة حتّى ولو لم يحصل منه العلم والجزم ، وإذا حصل القطع واليقين من أيّ سبب كان ويكون عمل به .

وعلى أية حال فإنّ الإجتهاد لا يطفأ ضياؤه ، ولا يمكن إخفاؤه ... أجل الحكم بأنّ هذا أعلم من ذاك ، وأرسخ فضيلةً واجتهاداً ، صعب

مستصعب إلا على الأقوياء والأكفّاء . وإلا إذا بلغ المجتهد من الإحاطة وعمق النّظر أعلى مراتب الإجتهاد وأنقاها فكراً ورأياً وأبعدها عن الشّوائب والأوهام .

الشرط الثاني ــ العدالة . وهي عبارة عن قوّة في النّفس تردع عن فعل الحرام وتبعث على فعل الواجب طاعة لأمره تعالى ونهيه ، والطّريق إلى معرفتها والعلم بها الحسّ والممارسة . وشهادة عدلين وحسن السّيرة عند الحياديين المتعفّفين الذين لا يبخسون النّاس أشياءهم .

ويحسن في المرجع العام أن يكون حيادياً في جميع مواقفه . ولا ضعف وميوعة في شخصيته فيلبس عليه غريب ، ولا قوّة وغلبة لعاطفته فيستغلّه القريب .

الشيعة والعميد إدّه*

تحدث العميد ريمون إدّه رئيس الكتلة الوطنية وعضو الحلف الثلاثي . إلى جريدة المحرّر ، حديثاً مسهباً ومطوّلاً . نشرته يوم ٢١ – ٧ – ٧٥. وقرأته على مهل وروية ، ولمست فيه العديد من الحقائق ، وأيضاً فيه مايبعث على الدهشة وطلب التفسير مثل قول العميد :

« قد اكتشف المسيحيون بعد الحوادث شيئاً كانوا يجهلونه عن هذا الواقع ، فهم كانوا يعتقدون أنّ الشّيعة لبنانيّون أكثر من السّنة ... وفجأة اكتشف بعض المسيحيين في الحوادث الأخيرة أنّ الذين هاجموا حارة حريك والدّكوانة وسنّ الفيل كانوا خاصّة من الشّيعة ، كما اكتشفوا أنّ الشّيعة كما قيل قد ساندوا بعض أفراد المقاومة ، وخاصّة جبهة الرفض بالهجوم على المناطق المسيحية في الشّياح وعين الرّمانة الخ » .

ولم يذكر العميد لا صراحة ولا كناية الذين عكروا الصّفاء وأشاعوا الفتنة ، أو يعط أيّ تفسير واضح لمسبّب الأسباب والأصل الأصيل للأحداث

* جريدة السفير – ٢٧ – ٧ – ١٩٧٥ .

الأخيرة ، فهل يتفضل العميد بالإجابة الواضحة عن التساؤلات التالية ، ونحن له من الشاكرين ؟

أولاً – من هو السّبب والحجر الأساس للفجائع الّتي ألقت بلبنان إلى الهاوية ؟

ولصالح من جاء التّخريب والتّقتيل ، والوقيعة بين المسلمين والمسيحيين في هذا الظرف بالذات الذي تخطط فيه أميركا والصّهيونية لخراب لبنان والقضاء عليه سياسياً واقتصادياً ، وتبيّتان له كل سوء وشرّ ؟.

هل هم الشيعة . أو الذين يتظاهرون بالغيرة على لبنان واستقلاله وكرامته ؟ .

وأيّ دولة عربيّة أو إسلامية تطمع في لبنان والسيّادة عليه ؟

وهل للبنان والعروبة والإسلام والمسيحيّة من عدوّ غير إسرائيل وهل شهر السّلاح أول من شهر ، وبدأ باطلاق النار في الحوادث الأخيرة ، الشيعة أو الذين يتغنون بحبّ لبنان وأرضه ؟

وهل من شيعي واحد بدأ وتعرّض بالإساءة لمسيحي أو غير مسيحي ؟ والثلاثة الذين ذبحوا من الشيعة مع من ذبح في البوسطة الحمراء بعين الرمانة يوم ١٣ نيسان ، من الذي ذبحهم ومثّل بهم وفظع ؟ الشيعة أو الإسرائيليون؟

ثانياً – لماذا ذكر العميد الهجوم على بيوت الكتائب في عين الرمانة وغيرها ، وسكت عن الصّواريخ والقذائف ورصاص القناصة الّتي كانت تنهمر كالسّيل على شارع أسعد الأسعد وشارع عبد الكريم الخليل وغيرهما في الشياح ، وقتلت العديد من الأطفال والنّساء والرّجال ، ودمّرت عشرات البيوت والمحلات التجارية ! وأيضاً سكت العميد عن حرق الرجال أحياء من الشيعة ، والتمثيل بسمل العيون ، وفري اللحم عن العظم !

ثالثاً – ألم يقف السّنة والشيعة صفاً واحداً يضربون الأمثلة في الوحدة والتماسك والإخاء يفتدون لبنان من العاملين على خرابه بالروح والأهل والمال ؟ فلماذا خصّ العميد الشيعة بالذكر ؟ وفي العدد ذاته من جريدة « المحرر » الذي نشر فيه حديث العميد قال المناضل إبراهيم قليلات :

« قدمنا ضحاياً ، وسقط منّا جرحى ، ونحن مستعدون دائماً للتضحية كلما دعت الحاجة » .

وبعد ، فإنّ الشيعة حملوا السّلاح ردعاً للمعتدي ودفاعاً عن النفس. وهم يدركون بالتزام ومسؤولية أنّ أقوى أسلحة الحقّ والنّصر هو الصّدق والإخلاص لدينهم ووطنهم بالاخوة اللبنانية والوحدة الوطنية ، وستظل هذه الوحدة – برغم ما حدث ويحدث – مثلاً أعلى وهدفاً نبيلاً للطائفة الشيعية في لبنان .

وقد لاقت هذه الطائفة المحرومة ما لاقت من الظلم والحيف والإجحاف من ساسة وحكام ومن غزوات إسرائيل المتتابعة وغاراتها المدمّرة المهلكة . وما راعت الدولة للجنوب إلاً ولا ذمة ، ولا رأى الجنوب أحداً في كل ما حلّ به من ويلات ونكبات إلا انتهازياً يراوغ أو مشعوذاً يخادع ! وما كفى كلّ هذا حتّى فاجأهم حزب الكتائب بذبح ثلاثة منهم في وقعة البوسطة الحمراء ، ثم اتهمهم العميد وأحد الأثافي بالحلف الثلاثي بالهجوم والإعتداء على المسيحيين ، وأجارنا الله من الحزب الثالث ، وأخشى ما أخشاه أن يكون الشيعة هم الهدف من الجولة الآتية أولاً وقبل الفدائيين.

وهو سبحانه المسؤول أن يصون لبنان من كيد الأشرار . وحبائل الصهاينة والاستعمار إنه سميع مجيب .

لا حياة بلا أمان

في ٢٨ – ٧ – ٩٧٥ نشرت الجرائد اللبنانية أنّ الحكومة تناقش خطّة إسكانية تبلغ تكاليفها ١٩٥ مليون ليرة لبنانية . قرأت هذا الخبر فتذكرت حكاية رواها بعض السّلف للخلف . وخلاصتها أنّ معدماً بلغ الجوع أشدّه من أحشائه . فلم ير وسيلة إلى طعام يسد الخلّة إلا أن ينزل ضيفاً على مغنٍّ يعرفه من قبل . ويعرف أنّه في سعة ولين . فطرق الباب ودخل الدار وانتظر وقت الغداء بفارغ الصبر . ولما آن الأوان قال صاحب البيت لضيفه الجائع : أيّ صوت من الغناء تحب أن تسمع ؟ قال : صوت المقلاة .

فالغناء لا يجدي عن الجوع شيئاً . وكذلك الإسكان بلا أمان ، وأيّة جدوى من الدّور والقصور والمعامل والحقول ، وهي في قبضة العدوّ وطائراته ورحمته ! .

تتصرّف إسرائيل في أرض لبنان وسمائه بزهو وخيلاء دون رادع ولا زاجر ، تقتل وتهدم وتشرّد أهل الجنوب على منظر من الحكومة ومسمع ، فجاءت النتيجة لا هيبة لها ولا وجود ، شأنها في ذلك شأن أيّ مسؤول لا يقوم بواجبه ، ويتنكر لمهمته واختصاصه .

وربّ قائل : إنّ لبنان ضعيف عسكريّاً ، وإسرائيل أقوى جيشاً

وسلاحاً !. وهذا القول مغلوط ومضلّل ، ومن الذي طلب أو يطلب من لبنان أن يهاجم إسرائيل أو يعلن الحرب عليها ؟ وإنما المطلوب من حكومة لبنان أن تدافع عن نفسها وكفى ،وليس من شك أنـّها قادرة أن تغرس في أرض الجنوب عشرات الصواريخ الرادعة المانعة ، ولكنـّها لم تفعل لالشيء إلا لأنّ أهل الجنوب ما كفاهم الإيمان بمحمد حتّى تشيّعوا لأهل بيته ؟. ولو كانوا على غير هذه الملّة لوجدوا الكثير من الأنصار !.

وليغامر ويقامر من يريد للجنوب الإبادة ، ولشيعة لبنان أن تستضعف وتهاون ، فسيعلم أن العاقبة للحق وأهله . وقد ظهرت دلائل الطّوفان وتباشيره . وكل آت قريب . وأيّ واعٍ يصعب عليه أن يتجاهل هذه الحقيقة .

حول النجف الأشرف *

سألني عالم يعرف مهمّته جيّداً : عن رأيي في بعض الكتب والنشرات التي صدرت حديثاً في النجف الأشرف .. فصارحته بما أعتقد ..

ثم انتقل بنا الحديث إلى أشياء أُخر من صادرات النجف ووارداتها ، الأهم من التأليف والنّشر . وغير الأهم ، وشعرت — بعد أن افترقنا — أنّ شبح السّؤال يطاردني . بل ويضايقني أيضاً ، ويقف نصب عيني أنّى اتجهت في الطّريق .. مع النّاس .. في الفراش .. ويلح عليّ في أن أكتب شيئاً أيّ شيء ، ولو فيما يجب أو ينبغي أن تلتزمه تلك المؤلفات والنّشرات ، وحاولت بكلّ سبيل أن أصرف شبح السّؤال عن ذهني ، فلم أُفلح ، وذهبت محاولتي مع الرّياح ، فلبّيت على غير اختيار :

إنّ الكاتب أيّ كاتب نجفياً كان أو غير نجفي ، مؤلفاً أو غير مؤلف لا يكتب النّجاح لأقواله إلا إذا حقّق أحد هذه الامور :

الأول : أن يأتي بجديد لا يعرفه أحد غيره .

---

* كتبت هذه الكلمة منذ ٢٠ عاماً أو أكثر ، ثم نسيتها كشبح مر بخيال ، وعثرت عليها الآن في أحد الملفات صدفة ومن غير قصد ، وما من إنسان تخلو حياته من القدر والمصادفات .

الثاني : أن يجلو غامضاً استعصى فهمه على غيره .

الثالث أن يساند الحقّ بالأرقام والحجج الدامغة ، ويدفع شبهات المبطلين بسلاح أقوى وأمضى من أسلحتهم وأباطيلهم .

هذا من حيث الفكرة ، أما من حيث الاسلوب فالشّرط الأول التّركيز والثاني التّوضيح والثالث الإختصار على أن ينطلق الكاتب مع سجيّته ، ولا يشغل نفسه باختيار الألفاظ ، ورصف العبارات ، فما تكلّف أحد البلاغة إلا جاء كلامه أشدّ على القارىء والسّامع من ضرب السّياط . ولماذا يخشى البساطة ، وهي أصدق تعبيراً ، وأكثر تأثيراً؟!.

أضع هذا القياس بين يدي القارىء ، ليقيس بنفسه ما صدر ويصدر في النّجف من الكتب والصّحف والنّشرات ، ولا يطمع مني بأكثر مما قلت .

والذي يستلفت النّظر أنّ النّجف – وهي جامعة دينية ، وليست مدرسة تعلّم الفن والجمال – قد خرّجت أُمراء في الشّعر ، بل وأئمة أيضاً ، كما خرّجت أئمة في الفقه وأقطاباً في العلم والفلسفة ، أما في مضمار الكتابة والنثر فما زال بينها وبين الأساليب الحديثة مراحل ، فما هو السّر يا ترى ؟.. أليس كلّ من الشّعر والنّثر من مقولة اللسان والبيان ؟..

ونجيب – على سبيل الظن – أنّ المدرسة الأدبية الحديثة قد تركت أثرها وطابعها على النثر العربي الموروث وشعره ، ولكنّ تأثير هذه المدرسة على النثر كان أقوى بكثير من تأثيرها على الشّعر ، حتّى كادت تنسخ الاسلوب القديم في النّثر من الأساس ، وحتّى أصبح النّاس على اختلاف أذواقهم وفئاتهم لا يستسيغون المناهج القديمة لا في الرّسائل والنشرات ، ولا في الكتب والمؤلفات ، أما الشّعر القديم فما زال محتفظاً بمكانته ، مستساغاً

لدى الجميع ، يقبل عليه العلماء والادباء والطلاب يحفظونه ويتدارسونه.

إذا عرفنا هذا ، وعرفنا أيضاً أنّ النّجف ما زالت تحتفظ بطابعها الإسلامي والعربي الموغل في القدم ، وأنَّها أبعد الجامعات عن كلّ ماستجد من المناهج والأساليب والغايات الفنية أدركنا لماذا خرّجت النّجف أُمراء في الشعر دون النّثر .

ولكنّ النّجف أحوج إلى النّثر والكتابة منها إلى الشّعر والنّظم ؛ لأنّه من الممكن أن تعيش بلا شعر ، ولا يمكن أن تعيش بلا نثر يعبّر عن حقيقتها . ويسمع صوتها الشرق والغرب . ويفرض عظمتها على البعيد قبل القريب بما تملكه من ذخائر وكنوز .

وقد يقال : لماذا لا تعبّر أنت عن النّجف ما دمت تملك وسائل التّعبير ، وقد أوجدتك النّجف من العدم . ولولاها لم تكن شيئاً مذكوراً؟. ألم تؤوك بعد اليتم . وتغنك بعد الفقر، وترفع ذكرك بعد الخمول ؟!.

قلت : أجل . وما أنا بمؤدّ بعض شكرها . وإن حرصت ، وأتمنّى لكلّ من خرّجته النّجف العلم والعمل الصّالح . والخير والنّجاح المطرد. ليثق بنفسه . ويلهو عن غيره . وإذا هيّأتني النّجف لما أنا فيه فقد خرّجت أعداء لي — إن صح التعبير — لا لذنب إلا أنّي تخرّجت وإياهم من جامعة واحدة ، ثم تيسّر كلّ لما خلق له .. ومالنا وللشكوى ؟!. فلنعد إلى الجواب.

لو كانت الدّعاية إلى النجف . والتّعبير عن عظمة النجف ، وتراثها الخالد ، وكنوزها القيّمة المتنوعة تتم بمقال أو مقالين لقضي الأمر منذ زمان وزمان ..إنّ النّجف إذا أرادت أن تسمع صوتها للقريب والبعيد ، وتفرض نفسها على الجميع فلا وسيلة لها إلا الإذاعات المتواصلة ، والبعثات الواعية ، والصّحف المنتشرة في جميع الأوساط .. وليس من شك أنّ هذه تحتاج إلى جهاز باهظ التّكاليف ..

وقد رأينا للأزهر مجلّة الأزهر ، بل إنّ جميع صحف القاهرة في خدمة الأزهر والدّعاية له ، ورأينا بعثات الأزهر إلى أوربا وأفريقيا وبلاد آسيا ، وفي العام الماضي ذهب شيخ الأزهر بنفسه إلى أندونيسيا وغيرها .. ويؤلمني أن أقول : إنّ للشّيعة بلاداً لا تعرف النجف عنها شيئاً ، ولا هي تعرف عن النجف شيئاً ، وآخر خبر سمعته أنّ في الجزائر الثّائرة جبلاً نائياً ، جميع أهله من الشيعة الإمامية .

بين أزهري ونجفي *

أنكرت في مقدمة الأحوال الشّخصيّة التي نشرت في مجلّة العرفان الغرّاء ج٩ م ٣٥ على جامعة النّجف جهلها بفقه السّنة ، وعلى جامعة الأزهر جهلها بفقه الإمامية ناسباً الجامعتين معاً إلى الجفاء والتّعصب . وفي ج١ م ٣٦ من المجلة نفسها قرأت مقالاً قيّماً مسهباً بعنوان الأزهر والتعصب لفضيلة الاستاذ الشّيخ عبد الغني الرّاجحي راداً على ما قلت محاولاً نفي التعصب عن الأزهر . وكان المنتظر من فضيلته – وهو ينفي التّعصب عن الأزهر وعلمائه – أن يكون في رده أوفر هدوءاً وأكثر اتزاناً تاركاً التّعبير بسوء الظّن وجماح القلم إلى غيره من المحافظين وصغار المتأدبين .

أللهم إلا أن نفسر أسلوبه هذا بما فسّر الكاتب به صيحات النّجف والأزهر التي ظاهرها التّعصب . فسّرها بأنّها « تسرّع منشؤه الرّغبة الأكيدة في الخير تخلق جوّاً من القتامة وتختفي فيه الحقائق وتبدو فيه معالم الفرقة والخصومة كأنّها في بشاعتها وشناعتها رؤوس الشّياطين » . وقد تجلّت في قوله هذه الحقيقة التي نطق بها « بيكون » بأجلى معانيها من « أنّ

* نشر في العرفان عدد شباط ١٩٤٩ .

ما يدركه الإنسان بعقله وحواسّه ليس إلا صورة لنفسه أكثر منها تصويراً للواقع » حمل الاستاذ تلك الصّيحات على التسرّع والباعث الوحيد له على هذا الحمل هو تسرّعه في التّعليق على قولي – وليست النّجف بأقلّ تعصباً من شقيقها الأزهر – حيث تساءل : لماذا كانت النّجف أقلّ تعصباً من الأزهر ؟ الخ . أنـا لم أقل أليست النّجف ، وإنما قلت وليست ، فجاءت الهمزة مكان الواو غلطاً مطبعيّاً ، صحح ونبه عليه في صفحة ١٤٦٤ من ج ١٠ م ٣٥ الذي صدر وانتشر قبل أن ينشر مقال الأزهر والتعصب بأكثر من شهرين على التحقيق ولكن قاتل الله التسرّع والسّرعة والإسراع والمصارعة والتعصّب أيضاً .

أما قول الشيخ : إن جامعة الأزهر تدرّس الفلسفة والملل والنّحل والمذاهب الأربعة فهواعتراف صريح بقولي : « إنّ الأزهر لا يعرف شيئاً من فقه الإمامية ولا عنه » على أنّ الجامعة النجفية تدرس الفلسفة والعقائد والفقه الإمامي بحريّة قصوى ، لأنّ التّعليم فيها يرتكز على أساس فتح باب الإجتهاد فترى التلميذ يجادل أُستاذه ويقف له موقف الند للند . لا يخضع لشيء سوى سلطان الحجة والدليل ومع ذلك قلت : إنّ النجف لا تعرف شيئاً من فقه الأحناف ولا عنه .

ومهما كان باعث الاستاذ الراجحي فإنّ من يتتبع أقوال رجال الدين ، ويستقرىء آثارهم بإمعان يجدها – نوعاً – غير بعيدة عن روح التعصب المشوب بشيء من الغرور ، مسلمين كانوا أم مسيحيين ، نجفيين أم أزهريين ، أقول هذا مع الإيمان بأنّ الأزهر والنجف قد خرّجا عظماء لهم آثارهم الخالدة التي تستنير بها العصور ، وتهتدي بها الأجيال .

ولكن لو نظرنا إلى برامج التعليم في كل من الجامعتين لألفيناها تقوم على أساس خاص ، لا على أساس الدين بمعناه الشامل الذي يرتكز على

الشهادتين أُصولا . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة فروعاً . على أساس القرآن الكريم «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ» والتوبة هنا ترك الشرك باتفاق المفسرين، فشعار الأزهر مسلم سني عقيدة وتعليماً، وشعار النجف مسلم شيعي إمامي عقيدة وتعليماً، ولا يتوهمنّ متوهم أنّي داعية إلى ترك المذاهب كلا . فإنّ في اختلافها أقوى باعث على النشاط والحماس في المسارعة إلى الخيرات على شريطة أن يرتكز هذا الخلاف على الخبر المشهور – للمصيب أجران، وللمخطىء أجر واحد – .

وإنّما أُخصص القول هنا في جهة الدرس والتعليم فحسب، إنّ هذه الطائفية في التعليم كانت عاملاً قوياً على « سوء الظن » وكان من جرّائها أن عدّ الاستاذ أحمد أمين ١٣ مذهباً للمسلمين متناسياً المذهب الجعفري الإمامي [١] وأن ينسب الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد أُستاذ الشريعة الإسلامية بالخرطوم ينسب في كتابه الأحوال الشخصية القول بلزوم الشهادة على عقد الزواج إلى علماء الشريعة الإسلامية، مع أنّ علماء الإمامية لايقولون بلزوم هذا الشرط . وأي بأس على المدرس في الأزهر أن يشير – ولو عرضاً – في درس الفقه إلى قول الإمامية وفي درس الاصول إلى الأصل الذي يستخرجون منه الحكم عند فقدان النّص ؟ وكذا القول في المدرس في النّجف . فكلتا الجامعتين تدرس العقائد والفقه وأُصوله مع التّجرّد عن

---

(١) التقيت مع الاستاذ الراجحي لأول مرة على مائدة الصديق الكريم صاحب العرفان ونلتقي الآن للمرة الثانية على صفحات العرفان الأغر، ومن أغرب الصدف أن يذهب بنا الحديث في الاجتماع الأول إلى الموضوع نفسه إلى مصر وآدابها وتعصب بعض رجالها، سألته يومذاك عن الذي بعث الاستاذ أحمد أمين على إغفال مذهب الإمام جعفر الصادق وعدم عده مع المذاهب الإسلامية التي ذكرها، فأجاب : انه من الجائز ان أحمد أمين لم يسمع بالمذهب الجعفري، ولست أدري كيف لم يسمع بالمذهب الذي يدين به تسعون مليوناً من المسلمين والذي هو أسبق المذاهب كلها، ثم يسمع بمذهب الثوري وأبي ثور ولا نعلم من أتباعها اليوم؟! وكيف يجتمع هذا الجواب مع ما جاء في مقال الأزهر والتعصب من « ان غير المذاهب الأربعة تدرس في الأزهر عرضاً وينقب فيها عن أدلتها ومداركها » .

كل نزعة مذهبية ، كما تدرسان اللغة العربية بما هي لغة من غير نظر إلى قبيلة دون قبيلة ، وهذا أدعى إلى التآخي والتّقريب بين المذاهب ، وأجدر بالنّجف والأزهر أن تسمّى كلّ منهما جامعة إسلامية بحق .

أما الغرور فيظهر للمتتبّع في تعرّض رجال الدين — نوعاً — لأشياء لا يعرفون عنها قليلاً ولا كثيراً . فقد جوّزوا لأنفسهم أن يتناولوا بالشّرح والتّفسير كلما يمت إلى الحضارة الإسلامية بصلة ولو كان من نوع الكيمياء والطّب والصناعة ، والباعث لهم على هذا التّطفل أنّهم علماء الإسلام . وهذي من علوم الإسلام وفنونه، فيجب أن تحترم فيها آراؤهم . وتقدّس أقوالهم ، وإن لم يعلموا عنها شيئاً . ألم يدرسوا الفقه والاصول والعقائد والملل والنحل وأصبحوا علماء الإسلام والمسلمين ؟ وتلمس ذلك في أحاديثهم، وبعض أسماء الكتب التي يؤلفونها، والمقالات التي ينشرونها .

ربما يحكم الشرع الأقدس بطهارة شيء أو نجاسته . وحلية أكله أو حرمته لغاية صحية . وما على الأزهري والنّجفي من بأس أن يكتفي بالجواب — إذا سئل عن الأسباب — بذكر الآية أو الحديث الذي استخرج منه الحكم تاركاً الجهة الصحية إلى الأطبّاء لأنّ النجف أو الأزهر ليستا من الجامعات الطبية .

وفي عقيدتي أنّه لا يسوغ لرجال الدين أن يفسروا كلما جاء في القرآن الكريم بحجة أنّه من عند الله ، وبما أنّه من عند الله فهو كتاب دين ، وهم رجال الدين وعلماء المسلمين ،لأنّ في القرآن أسراراً وحقائق في علم الفلك . والتاريخ ، والطبيعة ، وغيرها فلا يسوغ — والحالة هذه — أن نرجع في تفسير الآيات المتضمنة لهذه الحقائق إلى غير أهلها الذين قضوا حياتهم في درسها وتمحيصها ، كما لا يسوغ أن يفسّر آيات الأحكام غير الفقهاء . الذين لهم مكانتهم الدينية فقهاً وأُصولاً .

فجدير بالأزهر والنجف أن ينزها الطّالب عن هذا التطفل ، ويرشداه إلى الحقيقة الواقعة ويوجهاه التّوجيه الذي يصرفه عن القول بغير علم .

وأترك الكلام عند هذا الحد وإن كان في الموضوع متسعاً لأكثر من ذلك شاكراً فضيلة الاستاذ الراجحي الذي مهّد لي سبيل القول فيه مضمراً له ولنقده المحبة الخالصة والإحترام النزيه .

وحبذا لو درس علماء الأزهر والنجف مشاكلنا المتصلة بحياتنا العلمية والعملية . وتناولوها بالنّقد والتمحيص، وعقدوا مؤتمراً كمؤتمر الأونسكو لتنظيم السّبل والمناهج التّي تخفّف البلبلة والفوضى تاركين التّبجح والغرور والتعصب والتّسرع والتقاليد البغيضة جانباً .

فقيد النجف الأشرف

حجة الإسلام الشّيخ محمد رضا المظفر يصح تعريفه بكلمة واحدة ، ويمكن التّعريف به في كتاب ، أما الكلمة فهي : أنّهُ فقيد النّجف الأشرف . وكفى .. أي أنّ النّجف بكبارها وصغارها تشعر بفقده ، تماماً كما تشعر الاسرة والعائلة بالخسارة والفراغ حين تفقد ركناً من أركانها ، وعماداً من كيانها ، أما سبب هذا الشّعور ، وهذا الإحساس فيتلخص أيضاً بكلمة واحدة . وهي أنّ النّجف تعرف — قبل غيرها — أنّ هذا الرّجل كان يمثّل الدّين بحقّ وجدارة .

ومعنى يمثّل الدين . ورجل الدّين أنّه رجل العلم والعمل . رجل الرّحمة والحنان ، والحب والسّلام ، والضّمير والوجدان ، رجل الإخاء والصّفاء ، والصّبر والتّسامح ، والصّدق والصّراحة ، والزّهد والعدل .. لا رجل المادّة والمنفعة ، والحقد والكراهية ، والتملّق والرّياء ..

إنّ رَجل الدّين ، أو العالم الدّيني ، مهما شئت فعبّر ، لن يكون أبداً صغير النّفس وحقيرها لأنّ الدّين كبير وعظيم ، ومن هنا جاء تسامح أهله وحماته الكبار .. وأستطيع القول بلا تحفّظ أنّ الذين يتمنّون للنّاس الويلات والعثرات ، وتصفرّ وجوههم ، وتتجعّد من الحقد ، والرّغبة

في الإنتقام ولا ينامون إلا على دبابيس الكراهية ، ومسامير الخبث ، أستطيع القول : إنّ هؤلاء بعيدون كلّ البعد عن الدّين الصّحيح ، والإيمان الخالص ، بل وعن الإدراك ، وتقدير الامور بموازينها .. إنّ الذي يتسامح في أشيائه الخاصّة يفقد انتصاراً جدّ صغير وحقير ، ولكنّه يربح الإنتصار الكبير ، وهو مرضاة الله ، وثقة النّاس . وقد تجلّت هذه الحقيقة في سيرة الشّيخ المظفّر .

وقال أتباع « ماكيافلي » : يجب أن يشتهر الإنسان باسم الطّيب المتسامح ، لأنّ الإشتهار بذلك مفيد له جداً من الوجهة المادية .. ولكن عليه في الوقت نفسه أن يكون في واقعه قاسياً فتّاكاً ، وذئباً مخادعاً ، لأنّ الناس كذلك في واقعهم ، فإذا لم يكن مثلهم كان من الخاسرين ..

وإذا كانت هذه النظريّة واضحة الفساد فإنّ عليها عمل الأصحاب إلا الذين زهدوا في التّطبيل والتزمير . وهم معروفون بأشخاصهم وأسمائهم . ومنهم الشّيخ المظفّر الذي شعر بالمسؤولية ، وتحمّلها . ثم أدّاها بإخلاص. لقد شعر بوجوب العمل على التّطور والتّقدّم ، فأقدم عليه بجرأة ، وعمل له بأمانة ، وتحمّل ثقله بمغامرة ، وصارع في الميدان ببطولة ، حتّى انتصر ، وعبر جميع متاهات الخطر .

وهنا يكمن سرّ عظمته التّي تميّز بها عن الذين لا ينطقون ، حتّى بكلمة « نعم ، أو لا » قبل أن يضمنوا الأرباح العاجلة الزّائلة .

البينة الشرعية

في قضايا الشقاق بين الزّوجين

قرأت في جريدة « الجريدة » كلمة بهذا العنوان للاستاذ المحامي رهج رمضان ، تكلّم فيها عن الشّقاق بين الزّوجين ، وبصورة خاصّة فيما إذا ادعت الزوجة وجود هذا الشّقاق ، وأنكره الزوج .

ونسب الكاتب إلى المحاكم الشّرعية أنّها تكلّف الزوجات بالبيّنة على الشّقاق وأنّها بذلك تقضي على الاسر العائلية . وتخالف ظاهر القرآن . وعمل الإمام علي بن طالب الذي قال عنه الرسول الأعظم : « أنا مدينة العلم ، وعلي بابها » ، نسب هذا إلى جميع المحاكم الشّرعية ، ولم يستثن المحاكم الشّرعية الجعفرية ، ولا أيّة محكمة من المحاكم الشّرعية السّنية.

ونؤكد للاستاذ رمضان أنّه لم تجتهد أيّة محكمة من المحاكم الجعفرية مثل هذا الإجتهاد منذ وجودها حتّى اليوم ، وقد تعرضت كتب الفقه للشيعة لموضوع الشّقاق بين الزوجين ، ووظيفة الحكمين ، ولكنّها لم تشر من قريب أو بعيد إلى أنّ البينة تطلب من الزوجة إذا ادعت وجود الشّقاق بينها وبين الزّوج ، فكان ينبغي للكاتب أن يتحفظ في نسبة هذا الإجتهاد إلى جميع المحاكم الشّرعية .

وأظن، والظّن لا يغني عن الحق شيئاً ، أنّ بعض المحاكم الشّرعية السّنية قد رأت هذا الرأي . فنسبه الاستاذ إلى جميع المحاكم السّنية والشيعيةبلا استثناء مع أنّ النّوع لا يقاس على الفرد ، وحكم الخاص لا يسري إلىالعام .

وعلى أيّ الأحوالفإنّي أشكر الاستاذ رهج الذي أتاح لي فرصة الكلام عنهذا الموضوع في صحيفة سيارة كجريدة « الجريدة » . وحبّذا لو عرضت اجتهادات المحاكم الشّرعية اللبنانية في الصّحف ليطّلع عليها الرأي العام. ويبدي أهل الإختصاص والمعرفة ملاحظاتهم عليها ، ويرشدوا قضاةالشّرع إلى ما هو خير على شريطة أن لا يتنافى مع القرآن الكريم والحديث الشريف .

وما قاله الكاتب من أنّ القاضي ينبغي له أن يعيّن حكمين بمجرد ظهور الشّقاق . ولا يكلّف الزّوجة بالبينة يتفق تماماً مع قول الشّيعة . قال فقهاؤهم : إذا ظهر للقاضي نشوز من الزوجين ومنافرة وشقاق بعث حكماً من أهله وحكماً من أهلها . سواء أثبت الشّقاق بالبينة أم بسؤال الطرفين ، أم بقرائن الأحوال . أم بإخبار مخبر صادق .

أمّا السّنة فقال محمد أبو زهرة في كتاب الأحوال الشّخصية قسم الزّواج مادة ٣٠٦ « إذا ادعت الزّوجة إضرار الزّوج بها بما لا يستطاع معه دوام العشرة بين أمثالها. ومن هنّ في طبقتها يجوز لها أن تطلب من القاضي التفريق بينها وبينه، فإن أثبتت دعواها، وعجز القاضي عن الإصلاح بينهما طلّقها طلقةبائنة، وإذا عجزت عن إثبات دعواها رفضها، فإذا تكرّرت الشكوى والعجز عن الإثبات بعث القاضي حكمين رجلين عدلين من أهلهما » . وعليه يكون اجتهاد المحاكم السّنية بطلب البينة من الزّوجات في قضايا الشّقاق وارداً في محله في الشكوى الاولى ، وفي غير محلّه في الشكوى الثانية .

حكام ... وحجاب ؟

قرأت في البيان الذي ألقاه الأمير خالد الشّهاب رئيس مجلس الوزراء على الصّحفيين أنّ دائرة المحافظة في بيروت كانت في عهدها السّابق تضمّ ٣٢ حاجباً . قرأت هذا فتذكرت بعض ما كنت قرأته في الكتب القديمة . وهو أنّ ملك الرّوم أرسل رسولاً إلى كسرى ملك الفرس ، ولما وصل إليه الرسول لم يجد عنده بوّاباً ، ولا حاجباً ، فقال له : لقد أقدرت عليك عدوّك بفتحك الباب ، ورفعك الحجاب .

فقال كسرى : إنّي جلست هذا المجلس لقضاء الحاجات . ورفع الظّلامات ، فاذا جاء مظلوم ، أو ذو حاجة مستعجلة فمتى يصل إليّ ، ومتى أقضي حاجته إذا منعته عنّي ! أما عدوي فقد تحصّنت منه بالعدل .

لم يكن كسرى نبيّاً دينياً وصاحب رسالة إلهية تفرض عليه الزّهد والتّواضع ، والبساطة في العيش والمظهر ، بل كان ملكاً زمنياً يدخل تحت تاجه معظم بلاد الشّرق ، ومع ذلك لم يكن لديه حاجب واحد ، وكان له من عدله وإنصافه ألوف الحجاب يحجبون عنه ألسنة النّاقدين والطّاعنين ، وكان لغيره من الحكام حجاب كثيرون يستطيعون دفع المظلومين عن بابه ، ولكنّهم سبة له ، وعاراً عليه مدى الدّهر .

ولا يدفعون عنه ضرّاً يوم يقضى عليه بالقسط والعدل ، بل ينزل به ، وبهم العذاب الأليم ، « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

ايجابية الصوم[1]

أرأيت إلى هذا الرجل ينظر بين الحين والحين إلى ساعته يرتقب غياب الشّمس وموعد الإفطار ؟! وهل أحسست معه باطمئنان النّفس وراحة الضّمير ؟ وهل تعلّمت منه درساً مفيداً في صلابة العقيدة والتّضحية في سبيلها ، وكيف لا يقف أمامها شيء حتّى الجوع والعطش ؟ وهل عرفت أنّه نشوان من لذّة الإنتصار والتّغلّب على الشّهوات وأنّه كافح نفسه بنفسه حتّى حقّق هدفاً كبيراً .

إنّه الصوم الذي ذكره الله بالثناء في قوله سبحانه : « إنّما يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لأجْلي ، فَالصَّوْمُ لِي وَأنا أجْزي بهِ » .

إذن ليس الصّوم عملاً سلبياً ، كما يتصوّره الكثيرون ، ليس امتناعاً عن الطّعام والشّراب ، ليس تصوّفاً وتديّناً مجرّداً ، وإنّما هو عمل إيجابي ، وتجربة واقعيّة ، وثقة بالنّفس ، واستجابة لنداء الله ، وكتبه ورسله . إنّه صراع بين النظام والفوضى ، بين العقيدة والإيمان ، والتّحلّل من كلّ شيء حتّى من الأخلاق .

(١) جريدة السياسة ٢١ / ٣ / ٥٩ .

إنّ الإنسان في حاجة إلى الإرادة القوية والعزيمة الصّادقة . إنّ الفشل والإنكسار ، لا سبب لهما إلا الشعور بأننا عاجزون لا نستطيع . وبهذا الشعور وحده استعبدت الشّعوب ، وساد الظّلم ، ولبس أبطال الإستعمار والفساد أكاليل النّصر والظّفر ، بهذا الشّعور شوّه المبطلون ما في الحياة من حقّ وخير وجمال . إنّ الشّعور بالعجز رذيلة ، بل هو أُمّ الرذائل وأصلها وينبوعها .

ولو بحثت عن السّبب لفشل الكثيرين في حياتهم لوجدته الشّعور بالعجز . كما أنّك لو درست نفسية المستخفين بالأديان وأفكارهم لألفيته ضعف إرادتهم ونفوسهم عن تحمّل القيود . لأنّ الدّين يكبح الشّهوات ويلجم عن المحرّمات . وكلنا يعلم أنّ الضّعيف يتشبّث بأوهى الأسباب . ليبرّر انحرافه عن جادة الصواب .

ومن أجل هذا ، ولكي يبرّر أعداء الدّين المتحذلقون انحلالهم وانحرافهم قالوا : لماذا نصوم ونصلي ، والله غني عن صومنا وصلاتنا ؟ ونقول : أجل إن الله غني عن العالم كلّه ، ولكنّنا نحن في حاجة إلى التّهذيب والتّقوى . في حاجة إلى أسلحة ماضية ضدّ غواية المبطلين والمضللين . إنّ إيمانك بأنّ هذا حقّ ليس بشيء إذا لم يقترن بالكفاح والجهاد في سبيل أن يصبح هذا الإيمان عملاً مجسّماً ، وحقيقة واقعة . ومحال أن يصبح إيماننا كذلك ويتحوّل إلى واقع حيّ ما دمنا نستسلم للمغريات . ونسترسل وراء الشّهوات . وقد تأمر النفس بالسّوء وتهم به ، ولكن قوّة الإيمان تقف بها عندحدود الله وأوامره ، ومتى عرف الله سبحانه الصدق من الإنسان في نيّته لا بد أن يلطف به ، ويجنبه الخبائث ، والموبقات واليكم هذا المثل الواضح من حياة غاندي :

قال غاندي في كتابه : « تجاربي مع الحقيقة » : حين كنت في إنكلترا

نزلت أنا وصديق لي في بيت امرأة إنكليزية وبعد أن تناولنا العشاء شرعنا نلعب الورق ، فشاركتنا ربّة المنزل ، وأخذ رفيقي يمازحها ويطلقان النكات غير المحتشمة ، ورحت أخوض معهما في هذا المضمار ، وكدت أتخطّى الحدّ ، ولكن سرعان ما رجعت إلى نفسي ، وشعرت أنّ الله يحذرني ويقول : « من أين حلّ لك هذا » ؟! فتقبّلت التحذير وغادرت المكان ناجياً بنفسي وذهبت إلى غرفتي مرتجفاً مرتعشاً خافق القلب مثل طريدة تحاول النجاة من مطاردها .

ثم قال غاندي : وهكذا أنقذني الله من هذه المحنة ، لأنّي كنت أتعبده وأُصلي له بإخلاص . والصّلاة ليست خرافة . إنّها عمل أكثر واقعية من أعمال الأكل والشّرب والقعود والمشي ، وليس من المبالغة في شيء أن أقول هي وحدها الحقيقة ، وكلّ ما عداها غير حقيقي ، وليس عندي أقل شك في أنّ الصّلاة وسيلة ناجحة لتطهير القلب من الأهواء ولكنّها يجب أن تكون مقترنة بأعظم قدر من التواضع .

وأُعقّب على قول غاندي هذا بأنّ الإنسان أي إنسان مردّد بين أمرين إما أن يضبط شهواته وينهى النّفس عن الهوى فيسلم ، وإما أن يندفع وراءها فيهلك . فهو إذن مخيّر بين السّماك الأعلى والدّرك الأسفل ، ولا واسطة بين الإثنين .

وهنا تساؤل يخطر على بال الكثيرين وهو هل يعرف الإنسان أنّه من الفئة النّاجية أو الهالكة ؟ وما هي العلامة الّتي يميّز بها نفسه بنفسه ؟ وهل هي مجرد الرّكوع والسّجود ، والإمساك عن الطعام والشراب ؟

وجواباً على هذا التساؤل إنّ العلامة الحقة هي العبادة المنبثقة من القلب لا من اللسان ، من اللحم والدم ، لا من الكلام والفم . أما إذا دخل الإنسان

الجامع وخاطب الله سبحانه بلا إله إلا الله والله أكبر حتّى إذا خرج منه نسي كلّ شيء وعبد العصاة الطغاة من دون الله ، وبكلمة أصرح وأوضح إنّ من يأتمن الخائن ، ويثق بالعميل ، ويدلي بصوته لمن لا دين له ولا ضمير لقاء نفع خاصّ ، إنّ هذا لا تنفعه صلاة ولا صيام ولا تسبيح وتهليل.

وبهذه المناسبة أُريد أن أُجيب من قال بأننا خسرنا الكثير بسبب الحوادث الدّامية التي مرت بالبلاد ، ولم نربح شيئاً ، أُريد الإجابة بأننا ربحنا كثيراً . واستفدنا فائدة لا تقدَّر بثمن . لقد أخذنا دروساً لا ننساها ولن ننساها أبداً. وأولها بل أهمها أننا لن نركن للعملاء والخونة بعد اليوم ، لن نركن إلى تاجر يشتري الصّوت بعشرة ويبيعه بألف ، لا مكان للأذناب بعد الثّورة . ولن يجدوا لهم في صندوق الإنتخابات صوتاً واحداً ، ولو بذلوا الملايين . وكفى بهذا كسباً .

من هم أهل البيت؟

ليس الغرض من هذا الفصل أن نبيّن مكانة أهل البيت وعظمتهم عند الله سبحانه ، بل غرضنا أولاً وبالذّات أن نعرف من هم المقصودون بهذه الكلمة ؟ .

والّذي انتهينا إليه بعد التتبع والتأمل أنّ المقصودين عرفاً بكلمة أهل بيت النّبي (ص) هم أسرته وعشيرته الأقربون . فلقد دأب الناس منذ القديم وإلى يومهم هذا أن يستعملوا كلمة أهل البيت في هذا المعنى ..

أجل إن الأئمة الأطهار أشهر وأكمل المصاديق .

أما المقصودون شرعاً من هذه الكلمة فهم فاطمة والأئمة الأطهار . ودليلنا على ذلك آية التطهير ٣٣ الأحزاب ، وحديث الثقلين :

أما آية التّطهير فإنّها تعني علياً وفاطمة والحسن والحسين بدليل آية المباهلة ٦١ آل عمران . وأغرب ما قرأت في التناقضات أنّ بعض السنة يقولون : إنّ المراد من « نساءنا » فاطمة لا أزواج النبي (ص) وفي الوقت نفسه يقولون : آية التّطهير ٣٣ من الأحزاب نزلت في نساء النّبي.. فأين وجه الجمع ؟! نستدل بهذا ، وبما جاء في سبب نزول آية التّطهير

في كتب الحديث والمناقب والتفسير ، وهو أنّها قد نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين .

ومن كتب الحديث التي أثبتت ذلك صحيح مسلم والترمذي ، ومستدرك الصحيحين ، ومسند أحمد ، وخصائص النسائي ، والرياض النضرة ، وكنز العمال ، ومسند أبي داوود ، والإستيعاب ، وأُسد الغابة ، ومشكل الآثار ، ومجمع الزوائد ، ذكر هذه الكتب الفيروز آبادي في كتاب فضائل الخمسة من الصّحاح الستة . وأما كتب التفاسير فمنها الدر المنثور للسّيوطي عند تفسيره « وأمُرْ أهلَكَ بالصّلاةِ » وتفسير الطبري والأندلسي والحافظ وغيرهم كثير حتّى ابن تيمية في كتاب المنتقى .

وقال صاحب المنار عند تفسير قوله تعالى : « وَيَحْيى وَعِيسى وَإلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصّالِحِينَ – ٨٦ الأنعام » . قال ما نصه بالحرف الواحد : « أقول في الباب حديث أبي بكرة عند البخاري مرفوعاً : إنّ ابني هذا سيد – يعني الحسن – ولفظ ابني لا يجري عند العرب على أولاد البنات ، وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم مرفوعاً : « وكل ولد آدم فإنّ عصبتهم لأبيهم خلا أولاد فاطمة فإنّي أنا أبوهم وعصبتهم » . وقد جرى الناس على هذا . فيقولون في أولاد فاطمة أولاد رسول الله (ص) وأبناؤه وعترته وأهل بيته » .

ومعنى هذا القول من صاحب المنار أنّ ولد فاطمة ليسوا أبناء رسول الله لغة ، ولكنّهم أبناؤه شرعاً لقوله (ص) : « أنا أبوهم وعصبتهم » : وأيضاً هم أبناء رسول الله عرفاً لأنّ طريقة الناس جرت على القول : إنّ أولاد فاطمة هم أولاد رسول الله وأبناؤه وعترته وأهل بيته .

هذا هو المراد بكلمة أهل البيت في آية التطهير . أما المقصودون بها

في حديث الثقلين فهم – على ما فهمناه من المساواة بينهم وبين القرآن في وجوب التمسك – فاطمة والأئمة الإثنا عشر الذين أشار إليهم النبي (ص) بقوله : « إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتّى يمضي فيهم إثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش » .

رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة والترمذي ج٢ ص٣٥ طبعة ١٢٩٢ هـ. والبخاري كتاب الأحكام ، ومستدرك الصحيحين ج٤ ص٥٠١ طبعة ١٣٢٤ هـ . ومسند أحمد ج ٥ ص ٨٦ طبعة ١٣١٣ هـ، وكنز العمال ج ٦ ص ٢٠١ طبعة ١٣١٢ هـ. كما في كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

هذا حديث الأئمة ١٢ . أما حديث الثقلين فقد جاء في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي بن أبي طالب ، وفي الترمذي ج٢ ص ٣٠٨ ومستدرك الصحيحين ج٣ ص ١٠٩ . ومسند أحمد ج٣ ص١٧ . وحلية الأولياء ج٩ ص ٦٤ طبعة ١٣٥١ هـ، وكنز العمال ج١ ص ٩٦ ، ومجمع الزوائد للهيتمي ج٩ ص ١٦٤ طبعة ١٣٥٢ هـ، والصّواعق المحرقة ص ٧٥ طبعة ١٣١٢ هـ أيضاً كما في كتاب فضائل الخمسة .

وبهذا يتبيّن معنا أنّ السنّة والشّيعة متفقون على أنّ الخلافة لا بد منها ، وأنّها في قريش دون غيرهم . وأنّ عدد الأئمة إثنا عشر إماماً ، ولكنّ السنّة يختلفون مع الشيعة في أمرين :

الأول – في حصر الخلافة بالهاشميين . وبصورة أخص بعليّ وبنيه .

الأمر الثاني – في تعيين الأئمة الإثني عشر بأسمائهم وأنسابهم وعلى هذا تكون فكرة الأئمة الإثني عشر من حيث هي : إسلامية، لا سنيّة فقط ولا شيعيّة فقط . وإنّما الخلاف في التطبيق .

أما السّبب لتسمية الفرقة الإثني عشرية بهذا الإسم مع أنّ السنّة يؤمنون بالأئمة الإثني عشر فهو أنّ هذه الفرقة قد أجمعت على تعيين الـ١٢ بأسمائهم وأعيانهم ، واختلف السنّة في ذلك فمنهم من قال : الـ ١٢ لم يخلقوا بعد وسيخلقون ويملكون بعد ظهور المهدي المنتظر ووفاته . ومنهم من قال : إنّ المراد بالـ١٢ إماماً غير أصحاب الرسول لأنّ حكم أصحابه يرتبط بحكمه ..

إذن كلّ الأئمة الإثني عشر من بني أُميّة ما عدا عثمان ومروان بن الحكم لأنّهما صحابيان، وعليه يكون أول الأئمة الذين عناهم النبي (ص): يزيد بن معاوية ، ثم ابنه معاوية . ثم عبد الملك بن مروان . وأولاده الأربعة: الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام ، ثم عمر بن عبد العزيز ، والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، وأخوه إبراهيم ومروان الحمار .

ومن السنة من قال : هم أبو بكر . وعمر وعثمان . وعلي . ومعاوية . ويزيد بن معاوية ، وعبد الملك ، وأولاده الأربعة . وعمر بن عبد العزيز.

ومنهم من قال : المراد وجود الـ١٢ إماماً مدة الإسلام حتّى يوم القيامة . وإن لم تتوال أيامهم (فتح الباري في شرح صحيح البخاري للعسقلاني ج ١٣ ص ١٨٣ وما بعدها طبعة سنة ١٣٠١ هـ) .

وتسأل : لقد فهمنا أنّ الإثني عشرية آمنوا بإمامة علي للنصوص التي دلت على إمامته كتاباً وسنّة ، وفهمنا أيضاً أنّهم آمنوا بإمامة الحسن والحسين لقول جدهم الرسول (ص) : ولداي هذان إمامان قاما أم قعدا .. أما إيمانهم بإمامة التسعة من ذرية الحسين فلم نعرف له مصدراً ؟

الجواب : بعد أن ثبت النص على إمامة علي والحسن والحسين وعصمتهم ثبت عند الإثني عشرية أيضاً أنّ الحسين (ع) نص على ولده زين العابدين

وهكذا نص الإمام السابق على الإمام اللاحق حتّى الإمام الثاني عشر ، وعليه ينتهي النص إلى الرسول الأعظم (ص) بالنظر إلى أنّه هو الذي نص على الأئمة الاول .

هذا ما ثبت عند الشيعة الإمامية عن نبيهم الكريم ، وإذا سألنا أي عالم من علماء السنّة ، وقلنا له : هل يجوز لأحد أن يخالف نصّاً يعتقد صدوره عن النبي لا لشيء إلا لأنّه لم يثبت عند غيره ؟ وأنّه هل يحرم العمل بالنص إلاّ إذا ثبت عند جميع الفرق والطوائف ، إذا وجهنا إليه هذا السؤال أجاب بلا تردد : كلا ، وألف كلا .. وإذن علام الطعن والإنتقاد .

وقد روى السيد عفيفي في كتابه « حياة الإمام أبي حنيفة » روى عن السيوطي عن علماء السنة : أنّ النبي (ص) بشر بالإمام مالك في حديث: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم بالمدينة .. وبشر بالإمام الشافعي في حديث : لا تسبوا قريشاً فإنّ عالمها يملأ الأرض علماً .. وبشر بالإمام أبي حنيفة في حديث لو كان العلم معلّقاً عند الثريا لتناوله رجال من فارس .

وجاء في تفسير روح البيان أنّ نصف الثمانية المقصودين بقوله تعالى: « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » هم أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد .

فهل يجوز للسني أن يؤمن ويعتقد بأنّ النبي نص على إمامة المذاهب السنيّة ، وأنّ الله سبحانه نص على أنّهم من حملة العرش يوم القيامة ،

هل يجوز هذا للسّني ،ولا يجوز للشيعي أن يعتقد بإمامة الأئمة الأطهار ؟ وأنّ النبي (ص) نص على بعضهم مباشرة ، وعلى البعض الآخر بالواسطة ؟.
وخير ما نختم به هذا الفصل قول أبي حيّان الأندلسي في تفسيره

البحر المحيط عند قوله تعالى : « إنّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّاً — ٩٦ مريم » . قال الأندلسي : « ذكر النقاش أنّ هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب .. ومن غريب الكلام ما أنشدنا الإمام اللغوي رضا الدين أبو عبد الله محمد بن علي الأنصاري لزبينا بن إسحق النصراني الرسغي » :

عديّ وتيــم لا أُحاول ذكرهم　　بسوء، ولكنّي محــب لهاشــم
وما تعتريني في عليّ ورهطــه　　إذا ذكروا في الله لومة لائــم
يقولون ما بال النصارى تحبهم ؟　　وأهل النهى من أعرب وأعاجم؟
فقلت لهم إنّي لأحسب حبهــم　　سرى في قلوب الخلق حتّى البهائم

أدب الشيعة

الشيخ عبد الحسيب طه حميدة عالم مصري من علماء الأزهر ومدرس في كلية اللغة العربية . ألف كتاباً أسماه « أدب الشّيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري » أثبت فيه بالأرقام أنّ أدب الشّيعة صميم في عروبته ، عنيف في ثورته ، وأنّه قد تظاهرت على إبرازه العاطفة ، والإحساس . والعقيدة ، وأنّه لذلك كان جديراً بالحياة . وأنّ الشّيعة قد تعرّضوا للأذى في سبيل عقيدتهم وحريتهم . فلم يزدادوا إلا تمسكاً بالحريّة والعقيدة .

وكشف المؤلف عن أسرار وجهات في أدب الشّيعة لم يسبقه أحد إلى شرحها وتبسيطها — فيما أعلم — وجرى قلمه بالعلم والحق في كلّ ما سطره عن حقيقة هذا الأدب وأغراضه وصلته بالحياة، لمحاربته للظلم والطغيان، ولكنّه — باللأسف — قد انحرف به القلم عن غير قصد إلى الأخطاء والأغلاط ، وهو يتحدث عن عقيدة الشّيعة ، وخلط بين الفرقة المحقة الناجية . وبين الفرق المغالبة البائدة . فكان في حديثه هذا كغيره من الذين نسبوا إلى الشيعة أشياء لا يعرفونها . والذي أوقع الشيخ في الخلط والإشتباه اعتماده على « ولهوسن » و « دوزي » و « فان فلوتن » وغيرهم من المستشرقين والمفترين[1] . وكان عليه أن يعتمد على كتب العقائد عند الشيعة أنفسهم ،

(١) انظر الفصل الثالث من كتاب « أدب الشيعة » بخاصة ص ٧٥ الطبعة الاولى .

ككتاب شرح التجريد للعلامة الحلي ، وأوائل المقالات للمفيد ، والعقائد للصدوق ، ومع الشيعة الإمامية للمؤلف ، وغيرها كثير .

ومهما يكن فنحن نحيّي المؤلف ، ونمنح ثقتنا الكاملة ، وتقديرنا البالغ لكل ما جاء في الكتاب ، ما عدا الفصل الثالث ، وما يتصل به من نسبة الغلو ، والرّجعة ، والتناسخ ، والسبئية [١] وما إلى ذلك ، إلى عقيدة الشّيعة بوجه عام ، نقول هذا مع الإعتراف بأنّ المؤلف لم يعتمد الإساءة إلى الشّيعة ، كيف ؟ وقد اعترف لهم بالفضل في أشياء كثيرة وإنّما نلاحظ عليه اعتماده في حديثه عن عقيدة التشيّع على غبيّ جاهل ، أو دساس خائن ، وإهماله المصادر الشّيعية الصحيحة .

ومهما يكن ، فإنّ الغرض من هذا الفصل أن نذكر فيه مقتطفات من أقوال المؤلف تصوّر أدب الشّيعة ، والأهداف التي يرمي إليها ، قال :

« إنّ أدب الشيعة أخذ من لغة الآباء لغته وألفاظه . ومن القرآن والحديث أُسلوبه وحججه ، ومن عقليّات العراق وحضارته معانيه وأخيلته . ثم استخدم ذلك في أغراضه الشّيعية ، حب آل الرسول ، والإخلاص لقرابته ، والإحتجاج لحقّهم في الخلافة ، ومنافحة خصومهم من أُمويين وزبيريين ، وخوارج وعباسيين ، ورثاء قتلاهم ، ومدح عقيدتهم .

وكانت حادثـة كربلاء الملطخة بدماء الحسين وآل بيت الرسول حداً فاصلاً بين طورين من أطوار هذا الأدب الخصب ، كان حبّاً صادقاً ، ومدحاً خالصاً ، وموازنة جريئة ، وحجاجاً عربيّاً صريحاً ، مؤسساً على نظرة العربي الذي هذّبه الإسلام للرّياسة ، وبيت الرّياسة ، فأسبق النّاس

---

(١) ألف السيد مرتضى العسكري كتاباً أسماه « عبد الله بن سبأ » عرض فيه الأدلة القاطعة على أن ابن سبأ اسطورة لا وجود له أبداً .

إلى الإسلام ، وأمسهم رحماً بالرسول ، وأشدّهم جهاداً للعدوّ ، وبلاءً في نصرة الدّين ، أحقّ الناس بخلافة المسلمين وزعامتهم ، وذلك كلّه قد اجتمع لعليّ بن أبي طالب لفضله وسبقه وقرابته وجهاده .

كانت حادثة كربلاء ، تلك الحادثة المروعة المشؤومة ، فاتحة طورٍ جديد من أطوار هذا الأدب الشّيعي .. كما كانت ذات أثر عميق في النفوس الإسلامية ، والعقائد الشّيعية ، والحياة السّياسية ، والواقع أنّ قتل الحسين على هذه الصّورة الغادرة ، والحسين هو من هو ديناً ومكانة بين المسلمين لا بد أن يلهب المشاعر ، ويرهف الأحاسيس ، ويطلق الألسن ، ويترك في النفس الإسلاميّة أثراً حزيناً دامياً ، ويجمع القلوب حول هذا البيت المنكوب .

نعم ، ولا بد أن يكبر النّاس هذا التنكيل الجائر ، والتمثيل الشائن بعترة الرسول ، وسلامته ، وفلذات كبده ، وقرّة عينه ، ويروا فيه إذاية له ، وكفراناً بحقه ، وتعرّضاً لغضبه :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ‏ ‏ ماذا فعلتم وأنتم آخر الامم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ‏ ‏ نصف أُسارى ونصف ضرّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ‏ ‏ أن تخلفوني بشر في ذوي رحمي

فبهذا وأمثاله قامت النائحات في العواصم الإسلامية يندبن الحسين ، ويبكين مصرعه ، وبهذا وأمثاله انطلقت الألسن الشاعرة ترثي ابن بنت الرّسول ، وتصوّر أسف النبي في قبره ، وحزنه على سبطه ، واحتجاجه على أُمته ، وتلقي على بني حرب سوء فعلهم ، وقبح ضلالتهم ، وجور سلطانهم ، وتسجّل في صراحة وعنف ، مروقهم عن الدّين ، وانتهاكهم لحرم الله .

وهال النّاس هذا الحادث الجلل ، حتى الامويين أنفسهم ، فأقض المضاجع ، وأذهل العقول ، وارتسم في الأذهان ، وصار شغل الجماهير . وحديث النوادي .

ومكث النّاس شهرين أو ثلاثة كأنّما تلطخ الحوائط بالدّماء ساعة تطلع الشمس ، حتّى ترتفع ، ورأى من حمل رأس الحسين نوراً يسطع مثل العمود إلى الرأس ، وطيراً بيضاء ترفرف حوله ، ورأى ابن عباس النبي (ص) في الليلة التي قتل فيها الحسين (ع) وبيده قارورة ، وهو يجمع فيها دماء . فسأله : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى .

وأمثال هذا كثير . نراه في الطبري . وابن الأثير . والأغاني . والعقد الفريد ، وصبح الأعشى [1] .

ومهما يكن من شيء . فقد صبغت حادثة الحسين . ولا تزال تصبغ أدب الشيعة بالحزن العميق . والرثاء النائح . والمدح المبتهل . والعصبية الحاقدة ، وأمدّته بمدد زاخر من المعاني والأخيلة والعواطف . فعزّزت مادته . واتسع مجال التمول فيه . وغدونا أمام أدب تبعثه عاطفتان بارزتان : عاطفة الحزن ، وعاطفة الغضب . تصدره الاولى حزيناً باكياً ، وتبعثه الثانية قوياً ثائراً .

والعاطفة أقوى دعائم الأدب : فإذا أثيرت وهاجت ، وكان بجانبها لسان طاق ، وبيان ناصع . ونفس شاعرة متوثبة ، فهناك الأدب الحي . والقول الساحر ، وكذلك كان الشيعة . تجمعت لهم كلّ عناصر الأدب .

---

(١) وابن حجر ، والثعلبي ، وأبو نعيم ، وسبط ابن الجوزي ، والبيهقي ، وابن سيرين ، وابن القفطي ، والترمذي ، وغيرهم .

لسان وعاطفة . وفواجع من شأنها أن تستنزف الدّم . وتذيب القلب، وتنطق الأخرس . فقالوا ، وبكوا : قالوا في الحقّ وطلبه ، والإرث وغصبه .

بكوا على حقّ ضاع . ودم أريق ، وحرمات انتهكت . وبيوت دمّرت . وجثث كريمة على الله والنّاس مثّل بها أبشع تمثيل ، وافتتان أموي أثيم في الفتك بالطالبيين وشيعتهم ، فقتل، وصلب . وإحراق وتذرية، وهم يقابلون ذلك بالشجاعة والصبر والإحتساب .

وكانت القصائد الباكية . والخطب الرائعة . والأقوال الدامية . صدىً لهذه الدماء المسفوحة والجثث المطروحة . تبعث ذكراها في كلّ قلب حزناً . فيبعث الحزن أدباً . ويصوّر الآلام ، ويعلن الفضائل . ويستميل القلوب . ويسجل العقائد . ويشرح القضية الشيعية . ويحتج لها في صراحة وعنف . فيتناولها من أطرافها . متفنناً في كل ذلك . فمفاضلة جريئة . ومعارضة شديدة . ومناقشة فقهية . ودعاية حزبية » .

نقلنا هذه المقتطفات . وهي قليل من كثير .

أولاً – لأنّها من شيخ أزهري .

ثانياً – لننبّه إلى هذا الكتاب القيّم الذي لم يؤلّف مثله في موضوعه ، والذي يجب أن يقرأه كل عالم وكاتب وطالب .. والغريب أن يكون مجهولاً لدى كثير من الشّيعة . وهو فيهم ولهم . وقد مضى على تأليفه أكثر من ست سنوات .

وإذا دل جهلنا بهذا الكتاب وما إليه على شيء فإنّما يدل على أنّنا

بعيدون عن الحياة كل البعد ، بعيدون ، حتّى عن تاريخنا ، وأنفسنا وواقعنا.. لقد أدرنا ظهورنا إلى المطابع ، وما تخرجه من كتب وصحف ، تصوّر حياة النّاس ، واستقبلنا بوجوهنا المادة ، فلا نفكر إلا بها ، ولا نفتح أعيننا إلا عليها ، ولا نمد أيدينا إلا إليها ، ولا نستطعم شيئاً سواها ، ومن أجلها نبغض ونحب ، ونقف على الأبواب نطبّل ونزمّر للزّعماء وأبناء الدنيا . ومع ذلك نحن أعلم الناس ، وأحسن الناس ، وأشرف من الكون ..

مودة أهل البيت (ع)

مهما اختلفت الأفراد في أوجه الشّبه فإنّك واجد بين أبناء الامّة الواحدة والدين الواحد جامعاً مشتركاً ، وطابعاً يميّزها عن غيرها من الامم والطّوائف ، وأقرب وسيلة لمعرفة هذا الجامع المشترك هي أقوال الادباء والشعراء ، فإنّهم يمثّلون تقاليد قومهم ، ويعبّرون عن عقائد طوائفهم أصدق تعبير .

ولقد تقوّلت فئة من الناس الأقاويل في عقيدة التشيّع ، وافتروا عليهم بما يغضب الله والرسول ولكنّ للشيعة تاريخاً طويلاً ، وحافلاً بالحوادث والثورات ، والعلوم والآداب ، وكلّها تنبىء عن حقيقة التشيّع ، فيستطيع طالب الحق أن يعرفه بنظرة واحدة إلى آثار علمائهم أو أدبائهم يقول شاعرهم :

آل بيت النبي أنتم غياثي في حياتي وعدّتي لمعـادي
مـا تزوّدت للقيـامة إلا صفو ودي لكم وحسن اعتقادي[1]

(١) من قصيدة للمرحوم الشيخ عبد الحسين الأعسم يرثي بها الحسين عليه السلام ، وهو من علماء الإمامية وشعرائهم ، توفي ١٢٤٧ هـ .

فعقيدة التشيّع ، إذن ترتكز على أمرين : حسن الإعتقاد ، وصفه الود لأهل البيت (ع) . وحسن الإعتقاد هو : الإيمان بالله وكتابه ، وبالنبي وسنته ، وقد أوجب القرآن والحديث مودة أهل البيت (ع) ، وإنّ إنكار مودتهم وولائهم إنكار لكتاب الله وسنة الرّسول (ص) .

ولسائل أن يسأل : هل من دليل يلزم النّاس بمودّتهم غير شهادة كتاب الله والحديث ؟ هل من سبيل يقنع من لا يؤمن بالله ولا بالرسول يقنعه بدليل معقول مقبول أنّ مودة أهل البيت (ع) يفرضها الوجدان ومنطق العدل على كل إنسان مسلماً كان أو غير مسلم ؟.

أجل ، إنّ من يوالي الحقّ والعدل يوالي أهل البيت (ع) . ومن يعادي الحق يعادي أهل البيت (ع)، لأنّ أهل البيت هم الحق ، والحق هو أهل البيت (ع) .

وقد تقول : هذه دعوىً تفتقر إلى إثبات . **والجواب** : إنّ أي دليل على ذلك أدلّ من أن يكون الحسين (ع) بنفسه صاعقة إلهية تنفجر على الباطل ؟! وأي شاهد أصدق من الدّماء والأرواح تبذل لنصرة الحق ؟! وإذا لم يكن الحسين (ع) هو الحق فلماذا كلّ هذا العداء والبغض من يزيد الباطل ؟.

وبقدر ما بلغ الحسين (ع) من الحقّ – إن صحّ التّعبير – بلغ يزيد من الباطل ، وكما عبّر الحسين (ع) باستشهاده عن مكانته من الحق فقد عبّر يزيد بضراوته عن منزلته من الباطل . لقد بلغ الحنق والغيظ بيزيد أن فعل بالحسين وأهله (ع) ما فعل . لا لشيء إلا عداوة للحق ، وهذا ما أراد الحسين (ع) أن يعلنه للملأ . ويخبر به الأجيال . فسأل يزيد قائلاً : ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته ؟! أو بمال لكم استهلكته ؟! أو بقصاص جراحة ؟! .

أجل ، إنّهم يطلبونه بأكثر من ذلك ، يطلبونه بما طلبه النمرود من إبراهيم الخليل . وبما طلبه فرعون من موسى الكليم ، وبما طلبه أبو سفيان من محمد الحبيب ، وما طلبه معاوية من علي المرتضى ، إنّهم يطلبون أن لا يوجد شيء على الكرة يقال له : دين وإيمان وعدالة وإنسانية ، ويأبى الحسين (ع) إلا الدين ، لأنّه لا شيء أعظم من الدين عند الحسين (ع) ، إنّه أعظم من الأرواح ومن الأنبياء والأوصياء ، فكم من نبي قدّم نفسه فداءً للدين ؟! وكم من إمام استشهد من أجل حمايته وصيانته ؟! إنّ عظمة الدّين لا يساويها شيء لأنّها من عظمة الله الذي ليس كمثله شيء.

وما أدرك هذه الحقيقة أحدكما أدركها النبي وأهل بيته (ص) ومن أجل ذلك بذلوا في سبيله ما لم يبذله إنسان ، وعبدوا الله عبادة الخبير بماله من عظمة وسلطان . فلقد أجهد النبي (ص) نفسه في الصّلاة حتّى تورّمت قدماه وحتّى عاتبه الله بقوله : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » وقد كان من عادة الإمام إذا سجد أصابته غشية لا يحس معها بمن حوله ، قال أبو الدرداء :

« رأيت علياً . وقد اعتزل في مكان خفي . وسمعته . وهو لا يشعر بمكاني . يناجي ربّه . ويقول : إلهي إن طال في عصيانك عمري ، وعظم في الصّحف ذنبي فما مؤمل غير غفرانك ، ولا أنا براج غير رضوانك . ثم ركع ركعات ، ولما فرغ اتجه إلى الله بالدعاء والبكاء والبث والشكوى ، فكان مما ناجى به : إلهي أفكّر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي ، ثم أذكر العظيم من أخذك . فتعظم عليّ بليّتي . آه إن أنا قرأت في الصّحف سيئة أنا ناسيها . وأنت محصيها . فتقول خذوه . فياله من مأخوذ ، لا تنجيه عشيرته . ولا تنفعه قبيلته . ولا يرحمه الملأ إذا أُذن فيه بالنّداء ! آه من نار تنضج الأكباد والكلى ! آه من نار نزاعة للشوى ! آه من غمرة من ملهبات لظى ! ثم أنغمر بالبكاء. ثم سكت لا يسمع له حسّ ولا حركة .

قال أبو الدّرداء : فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة ، فحرّكته فلم يتحرك ، فقلت : إنّا لله وإنّا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب ، فأتيت منزله أنعاه لفاطمة (ع) فقالت فاطمة لأبي الدّرداء : ما كان من شأنه ؟ فلما أخبرها قالت : هي والله الغشية الّتي تأخذه من خشية الله » .

وكان الإمام زين العابدين في الصّلاة فسقط ولده في البئر فلم ينثن عن صلاته ، وحين فرغ منها مدّ يده وأخرجه ، وقال : كنت بين يديّ جبّار . لو ملت بوجهي عنه لمال عنّي بوجهه . وإذا كان أهل البيت (ع) يهتمون بالصّلاة هذا الإهتمام حتّى في الحرب وساعة العسرة . فكيف يدّعي التشيّع لهم من يتركها ويتهاون بها في السّلم وساعات الفراغ ، ويفضّل عليها اللهو والمجون .

ومرّة ثانية نكرّر القول : بأنّ التشيّع يرتكز على الإعتقاد بالله والرّسول واليوم الآخر ، وإقام الصلاة وإيتاء الزّكاة ، وعلى صفو الود لأهل البيت(ع) الذين قاتلوا وقتلوا من أجل الصّلاة وعبادة الواحد الأحد . إنتحى الإمام ناحية يصلّي لله في صفين ، والحرب قائمة على أشدّها ، وحين افتقده أصحابه اضطربوا ، وكسروا جفون أسيافهم وآلوا أن لا يغمدوها حتّى يشاهدوا الإمام ، ولما وجده الأشتر قائماً للصّلاة انتظره حتّى فرغ منها . وقال له : أفي مثل هذه الساعة ؟ فأجابه : نقاتل لأجلها ونتركها ؟! .

وقام الحسين (ع) إلى الصّلاة في قلب المعركة ، وأصحابه يتساقطون قتلى بين يديه ، فصلّى بمن بقي منهم ، وسعيد بن عبد الله الحنفي قائم بين يديه يستهدف النبال والرماح حتّى سقط إلى الأرض ، وهو يقول : أللهم العنهم لعن عاد وثمود ، أللهم بلّغ نبيّك عنّي السّلام ، وأبلغه مالقيت من ألم الجراح ، فإنّي أردت ثوابك في نصرة ابن نبيّك ، ثم قضى نحبه ، فوجد به ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح .

شعار عليٍّ سيف ومعول

كان الصّحابة في عهد رسول الله (ص) يمارسون الحياة ويكافحون كسائر النّاس . فكان منهم التاجر والفلاح والعامل والرّاعي والحطاب وصاحب الصّنعة . وما كانوا يعتمدون على الفيء وكفى .

وكان الإمام قبل الخلافة . وبعدها يحيي الأرض الموات بكدّ اليمين وعرق الجبين . ويستعمرها بالحرث والزّرع والغرس والسّقي بيده الشّريفة. قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة :

« قد علم كلّ أحد أنّ عليّاً عليه السّلام استخرج عيوناً بكدّ يده في المدينة وينبع وسويعة . وأحيا بها مواتاً كثيراً . ثم أخرجها عن ملكه ، وتصدّق بها على المسلمين ، ولم يمت وشيء منها في ملكه » .

وفي كتاب « الإستيعاب » لا بن عبد البرّ : « قتل عليّ . ولا مال احتجبه . ولا دنياً أصابها » .

لقد عمل عليّ في الأرض من أجل الجائعين تماماً كما جاهد بالسّيف في سبيل الله والدّين . وإذا كان شعار الإشتراكيين (المطرقة والمنجل) فإنّ شعار عليّ عليه السّلام (السّيف والمعول) هذا للمعوزين ، وذاك

للمعتدين على أقوات العباد وأرزاقهم ، وكلاهما بمنزلة سواء عند الله وفي منطق الحياة وتقدّمها ..

وغريبة الغرائب أنّ شيعة عليّ يكثرون الكلام والتأليف في فضائله ومناقبه،ويجهلون أو يتجاهلون عمله ونضاله في الأرض من أجل الإنتاج ومنافع النّاس ، ويركزون همّهم واهتمامهم على النّصوص والأقوال .. ولا سرّ – فيما نعتقد – إلا لأنّهم أو الكثير منهم يستهلكون ولا ينتجون ، وفي الوقت نفسه يتطلّعون بشوق إلى المديح والثناء مكافأة على الكسل والإسترخاء .

هل يقف أعضاء جمعية المقاصد*

من العقائد الاسلامية موقف اللامبالاة !

ظهر في هذا الشهر كتاب اسمه – الاسلام في نظر الغرب – يحتوي على ثمانية مباحث لثمانية كتّاب . ومنهم ستة أجانب . ونقله إلى العربية الدكتور إسحاق موسى الحسيني . ونشرته دار بيروت للطباعة والنشر . ونشكر للناقل والناشر هذا الجهد . لأنّهما ساهما مساهمة فعالة في الكشف عن نوايا المستعمرين وأساليبهم الحديثة لقتل الروح الوطنية . والكيد للاسلام الذي هو حرب على كل مستعمر ومستثمر .

من هذه الأساليب الدعوة إلى تفسير الإسلام تفسيراً جديداً . وأنا من لمؤمنين بهذه الدعوة والمتطوعين في سبيلها ، وقد عانيت ، وما زلت أُعاني من جرّائها ما يعانيه كل محق . ولكني أدعو إلى تفسير الاسلام بما يتلاءم مع الحياة الجديدة على أساس الاحتفاظ بالاسلام . والحرص على مبادئه . وامتثال أوامره ونواهيه . وبقول أدق وأخصر : أدعو إلى تنزيه الإسلام عن كل شائبة تعوق عن التطور والتقدم . أما الكتّاب فيدعون الشباب المسلم إلى

* جريدة التلغراف ١٦/ ٤/ ١٩٥٢ .

تفسير الاسلام بما يمحوه محواً باتاً من الوجود ، بحيث لا يعمل بكتاب ولا سنة . وهذا هو التجديد في الدين عندهم ، ويزعمون أنّ المفكرين المصريين نظروا إلى الإسلام والقرآن بروح التقدم ومن هؤلاء لطفي السيد مدير جامعة فؤاد ، ومصطفى عبد الرزاق شيخ الأزهر السابق .

والهدف من هذا الافتراء هو إغراء الشباب والشابات بهجر كتاب الله، وسنة الرسول الأعظم ، والاعراض عن تعاليمهما التي تخلق من كل إنسان قوة تقف في وجه كل ظالم يحاول التعدي على حقوقه واستقلاله .

وقد جاء في صفحة ٣٤ وما يليها تحت عنوان تطبيق الاسلام « هناك كثير من الشباب المسلمين يشربون الخمر . ويقرءون الصحف أكثر مما يتلون القرآن ، ولكنّهم يساهمون في الأعمال الخيرية ذات الطابع الحديث. والنبي يقول : « أتحب خالقك ؟ أحب أخاك الانسان أولا » هذا هو التجديد الذي يدعونا الكتاب إلى أن نفسر به الإسلام ، إلى شرب الخمر أُم الخبائث والمفاسد . وهجر القرآن . وقراءة الصحف التي يغذونها بالأموال . ويوجهونها حسب أهوائهم ومآربهم . وإذا أردنا أن نحافظ على الاسلام ونكون مسلمين حقاً فما علينا إلا أن نتصدق على المحتاج بقرش أو كسرة رغيف ، هذا هو الاسلام بجوهره وأهدافه عند دعاة الاستعمار !

وفي صفحة ٣٥ « إنّ لجمعية المقاصد في بيروت مدارس ومستشفيات وعيادة ودار أيتام وحديقة أطفال ومدرسة للتجارة ، وفي هذه الخدمات تعويض عن العقائد التي يمكن أن يقف منها الأعضاء موقف عدم المبالاة . وفي مصر تقل عناية الجيل الجديد بالأزهر . والأنظمة القديمة » وطبيعي أن يبذل دعاة الاستعمار غاية الجهد . ويستعملوا شتى الأساليب لإعراض المسلمين عن الأزهر والمقاصد ، لأنهما يغرسان عقائد الاسلام في النفوس . ويعملان على بث تعاليمه ونشر مبادئه التي لو رعاها المسلمون حق الرعاية لم يكن للاستعمار في بلادهم . ولاسرائيل في أرضهم عين ، ولا أثر .

كان الاستعمار يتخذ من النعرات المذهبية بين المسلمين وسيلة لتوطيد أركانه . ولما تنبه المسلمون لدسائسه ومكائده تنادوا إلى جمع الصفوف ، والاجتماع تحت راية القرآن فلم يبق للاستعمار من سبيل إلا محاولة القضاء على هذه الراية التي تجمع شملهم ، وتوحد قوتهم .

والغريب أنهم يحاربون الاسلام بكل سلاح ، ثم يظهرون بمظهر المحامي والمدافع عنه ، ويحذرون المسلمين من الشيوعية لأنها تناقض دينهم وعقيدتهم ، كما في صفحة ١٢٨ وما يليها . وهذا هو شأن الاستعمار الذي لا يتقيد بما يقول ، ولا يعبأ بما يفعل ، ويتلوّن بكل لحظة بلون .

ليس المسلمون بحاجة إلى من يعلمهم حقيقة دينهم ، وجوهر عقيدتهم . فإنّ جوامعهم ومعاهدهم أعرف بالاسلام من دائرة الجاسوسية الغربية والدعاية الأجنبية للاستعمار والاستثمار .

يحدثوننا عن الاسلام . وكيف يجب أن نفهمه ؟ ولا يحدثوننا عن الدكتاتورية والقوى الرجعية التي يدللونها ويؤيدونها بكل وسيلة ، يحدثوننا عن المذاهب الاسلامية وما بينها من الفوارق . ولا يحدثوننا عن حقوق الإنسان « وحريات الشعوب » وعن السبيل المؤدية إلى زيادة انتاجها الوطني ورفع مستواها الثقافي ، يحدثوننا عن المعاهدات وفوائد الخبراء الأجانب . ولا يحدثوننا عن مضار هذه الحواجز القائمة بين الأقطار العربية وتفريق كلمة العرب .

أوضاعنا الحاضرة*

قرأت في جريدة « نداء الوطن » تاريخ ٢٤ – ١ – ٥٩ كلمة قيمة بقلم الكاتب الموجه الاستاذ حبيب ربيز بعنوان نظرية الفراغ بين الشرق الأدنى والفضاء الأوسع – جاء فيها :

« هكذا نجد موسكو وواشنطن وسائر عواصم السياسة الدولية تتحدث عن ضرورة تخفيف حدة التوتر الدولي وانباء الحرب الباردة . والتعايش السلمي وتدعيم السلام العالمي . وتعاون الشعوب . كل هذا تتناقله الصحافة العالمية ، ومحطات الإذاعة مؤيدة التطور الملموس في الحياة الدولية ، بينما نحن في البلاد العربية نتلهى بالسياسات الصغيرة . ونتراشق التهم جزافاً . ولا نجد مخرجاً للحلقات المفرغة والقديمة التي ندور فيها » .

قرأت هذه الكلمة الحكيمة . ووددت لو يقرأها كل لبناني وكل عربي . قرأتها فوقفت عندها طويلاً ، وتأملت فيها كثيراً ، وسرعان ما انتقلت بي إلى النظر والتأمل في أوضاعنا الحاضرة ، واستقرائها وضعاً فوضعاً من المشاحنات وتلفيق الحكايات إلى المؤامرات الاستعمارية والأطماع الصهيونية ،

* جريدة نداء الوطن ٢٦ / ١ / ١٩٥٩ .

فأخذتني الدهشة والحسرة .. روسيا وأميركا تدركان أن التطورات العالمية تفرض عليهما التعايش والتعاشر بالمعروف . تدركان هذه الحقيقة . وتخضعان لحكمها على ما بينهما من التباعد والتباين في الأرض واللغة والتراث والتقاليد والأنظمة . هذا . إلى أن كلا منهما تملك من قوة المال والسلاح ما لا تحلم به عشرات الدول مجتمعة من أمثال دولنا ، ونحن العرب الذين لا حول لنا ولا قوة إلا بالتضامن والتعاضد يكيل بعضنا الاتهام لأخيه بغير حساب . ويلفق حوله الأكاذيب بلا روية وورع ، والعدو المشترك يطوّقنا من كل جانب ، ويتربص بنا الدوائر . وينتظر الفرص المناسبة ، ليفترس كلاً منّا على انفراد ، وقد أعنّاه على أنفسنا . وهدمنا بيوتنا بأيدينا ، وماذا يبتغي منا الإستعمار أكثر من أن نتراشق بالسباب والشتائم في الصحف والإذاعات ؟! وهل أحب إلى قلب إسرائيل من هذه المعركة الدامية السافرة التي تنقلها من جرائدنا إلى إذاعاتها ونشراتها ، وتملأ بها دنيا الشرق والغرب ؟!

لقد مني الاستعمار بفشل ذريع بعد تأميم القناة والاعتداء على بور سعيد. وبعد انهيار مبدإ أيزنهاور وثورة العراق وطرد جيوشه من لبنان والاردن. وأدرك أن لا سبب لهذه الهزيمة إلا تضامن العرب ووحدة نضالهم . حتى تأييد الشعوب المحبة للسلام لم نظفر بشيء منه لولا صمودنا وتماسكنا . أدرك الاستعمار أن استغلالنا محال ما دامت ارادتنا واحدة ، وعزيمتنا متحدة فسعى سعيه للتفرقة ، واحداث الثغرات بين البلدان العربية ، وتحايل لها بكل وسيلة ، وأي وسيلة أجدى من الاعتماد على العملاء ؟! فأوعز لهم بالدس وإثارة الفتن فلبوا طائعين وامتثلوا صاغرين ، وشنوا الحملات الاستفزازية ، وبديهة أن الحملة على أي بلد عربي هي حملة ضد القومية العربية وضد كل من نطق بالضاد في المشرق والمغرب ، هي في صالح فرنسا في الجزائر وتونس ، وصالح بريطانيا في جنوب اليمن والبريمي والبحرين وفي صالح إسرائيل والشركات الاحتكارية الاميركية في كل مكان .

وكيف نطلب من الغرب أن يحترم القومية العربية ويعترف بها . ونحن متباغضون متباعدون لا يعترف الأخ بأخيه ؟!

وغريب أمر بعض الصحف تسهب وتتبسط في الحديث عن الهوة السحيقة العميقة بين البلاد العربية ، ونسبة المساوىء إلى بعض حكامها . وتسكت سكوت أهل القبور عن العلاقات التجارية التي تزداد يوماً بعد يوم بين اسرائيل والدول « الاسلامية » كتركيا . أما الهجوم على حماة اسرائيل وقادتها وراسمي خططها فلا بأس به من حين لآخر من أجل التمويه والتنكر بأثواب المخلصين ، ولكن هيهات لقد بدا الوصوليون عراة كأسيادهم . إنّ كلمة يكتبها أو يلفظها مفرقون شتامون لا تفسر إلا باتقان الخديعة ، وإلا بإحكام التمثيل لجميع أدوار المؤامرة وفصولها . وأنصح لهم ومن أجلهم أن يتركوا هذه المهنة فلم يعد لها سوق في عهد الذرة والفضاء ، وعصر الشعوب والجماهير . والسكوت خير ألف مرة من كلمة لا توحي إلى أحد الثقة بصاحبها .

قال الإمام علي : « الكذاب والميت سواء . لأنّ فضيلة الحي على الميت الثقة به . فاذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته » .

وأخيراً ، لا شيء إلا الله وإرادة الشعب ، كل شعب .

النعرات الطائفية والاتجاهات السياسية *

بعد حرب حزيران رأينا وسمعنا أشياء مذهلة مدهشة ... كان المفروض أن نرى عكسها تماماً ، وأن تنتهي الأُمور إلى غير ما انتهت إليه ، أن يتغير كل شيء في العالم العربي إلى الأتم الأكمل بعد تلك الرجة التي هزته من الأعماق . أن يتغير كل شيء لو سارت الأمور في مجراها الطبيعي ، ولم تنحرف عنه إلى التخطيط الذي صممه العدو لتدعيم وجوده في الأراضي المغتصبة .

كنا نحسب أن تتغير التقاليد ، وأن يحدث في كل بلد عربي شيء يشبه إلى حد قريب أو بعيد ما حدث في الجمهورية العربية المتحدة يوم ٩ و ١٠ يونيو ... فيوضع المخلصون الأكفاء في مركز القيادة ، ويلغى كل امتياز ، وتقاطع كل بضاعة لمن ظاهر إسرائيل مادياً أو سياسياً ، وأن تستحيل الاضغان والأحقاد إلى إخاء ووئام — مثلاً — كنا نعتقد أن اللبنانيين جميعاً وبلا استثناء ستتحد كلمتهم ، ويكرسون طاقاتهم ، ويرتفعون عن المصالح الشخصية ليعملوا يداً واحدة من أجل معركة المصير .

---

* جريدة الجريدة ١٧ / ٦ / ١٩٦٩ .

والذي يؤسف له أن العكس هه الذي حدث...فالبعض يحركون النعرات الطائفية ، وآخرون الاتجاهات السياسية ... ولماذا في هذا الوقت بالذات ؟ هل للمصادفة ؟ أو هناك سر ؟ وإذا كان العقل يرفض المصادفة وجب أن نبحث عن السر .

ومهما يكن فانّ أية حركة في هذا الظرف تمس الوحدة الوطنية بين اللبنانيين ، وتفرقهم شيعاً فلا مصدر لها إلا اسرائيل وأسيادها ومطامعها في الأراضي اللبنانية ، فان أخشى ما تخشاه اسرائيل هو اجتماع كلمتنا ،وتوحيد صفوفنا ، وقد أعلنت ذلك بلسان قادتها وزعمائها .. فأي لبناني يبدر منه أدنى شيء يضر بالوئام وجمع الشمل فانّه يلتقي مع اسرائيل ، ويخدم مصالحها ، بل هي التي دفعت به إلى ذلك ... وليس من الضروري أن تتصل به أو يتصل بها مباشرة، فانّ أساليب الدعاية الصهونية لا يبلغها الاحصاء ، وهي تخاطب كل إنسان بلغته ، وتأتيه من إحساسه وشعوره.تبث خطابها هذا في أميركا وأوروبا ، ثم ينتقل الينا بألف وسيلة ووسيلة .

سمعت — وأنا على يقين من صدق الراوي — أن بعض الشيوخ لا هم لهم في هذه الأيام إلا أن يبثوا روح التعصب في نفوس من يستمع إليهم من أبناء طائفتهم . وأنّ حديث البغض والكراهية « لطائفة معينة » هو شغلهم الشاغل ، لا ينصرفون عنه ، ولا ينصرف عنهم ، حتى كأنّه لا اسرائيل ولا مشاكل إلا هذه الطائفة ، وهنا يأتي التساؤل : لماذا التعصب الآن ؟ هل هي مصادفة ؟ وهل من الدين تفريق صفوف العرب والمسلمين،وبالخصوص في هذا الظرف ؟ وهل هذا جهاد ونضال من أجل فلسطين ؟

لقد وصل الإنسان إلى مشارف القمر ، وغداً أو بعد غد ينزل عليه ،

وينتقل منه إلى الكواكب الأُخرى ، ونحن مشغولون بمسلم ومسيحي ، وسني وشيعي . ومن هو الرابح من هذه النعرات نحن أو العدو ؟ وإلى متى هذا التيه في الأُفق الكريه المظلم ؟.

وبعد فنحن نعرف من أين يصدر أولئك الذين يحاولون إيقاظ الفتنة، وإلى أيّ شيء يهدف من يدفعهم إليها ، وأيضاً نعرف أنهم لن يصلوا إلى مايريدون ويريده عدو الله والوطن . ولكن نشفق عليهم أن يساقوا كالقطيع بعصا الفساد والضلال .

عيد بأية حال ؟...

في جنوب لبنان *

عاش الجنوب طويلاً في التخلف والحرمان ، وفي الاهمال والنسيان من الحكام والمسؤولين . وناشدنا نحن الجنوبيين أصحاب الفخامة والشأن ، وطالبنا بالمساواة مع الأُخوة في الجبل ، بلد الرئيس الأول من قبل ، وفي طرابلس وبيروت بلد الرئيس الثالث من قبل ومن بعد ، ولكن بلا جدوى.

واستمر الجنوب في الحرمان والإهمال إلى أن جاءت الكارثة الكبرى في حزيران المشؤوم ١٩٦٧ ، فاستقبل أهل الجنوب لوناً جديداً من المآسي والآلام يختلف عن ماضيه اختلافاً يفوق التصور . ولست أعني بهذا اللون الجديد التقتيل والأسر والتدمير الذي تقوم به إسرائيل في الجنوب ، فإنّ هذا وأكثر من هذا يهون عند المقارنة مع موقف الحكام والمسؤولين من اعتداءات اسرائيل . فلقد خلق هذا الموقف عقدة في نفس كل واحد من أبناء الجنوب حتى أخذ يتساءل : هل هو لبناني حقاً ؟ وهل له دولة وحكومة ؟ وهل الجنوب جزء من لبنان في نظر السادة الحكام ؟ وإذا كانت منطقة الجنوب

* جريدة النهار ٢٢ / ١ / ١٩٧٢ .

تتكامل مع المناطق الأُخرى فبأي شيء نفسر هذا الفراغ الخطير في الدفاع عن الجنوب وإخلاء الجو لإسرائيل ، تقتل وتأسر وتدمر بل « تسيطر بالفعل على جزء من الأراضي داخل الجنوب بحيث أن لديها حرية التصرف في رقعة من الأرض، عرضها كيلومترات عدة ، وهذا يعني أن إسرائيل تتمتع باحتلال فعلي لجزء من جنوب لبنان دون أن تتحمل أية مسؤولية تجاه هذه الرقعة من الأرض اللبنانية محلياً أو دولياً » (« النهار » ١٨ — ١— ١٩٧٢ ص ٩) فالى أي مغزى يشير هذا التعامي والاستسلام ؟

ورب قائل : هل يريد أهل الجنوب ، لكي يشعروا أنهم لبنانيون حقاً، أن يعلن لبنان الحرب على إسرائيل ، وإذن يصيبه ما أصاب مصر والاردن وسوريا عام ١٩٦٧ ؟.

وقد طرح هذا السؤال أكثر من مرة على ابن الجنوب . وأجاب عنه بكل بساطة : إنه لا يريد الآن شيئاً ولا يهمّ إلا بشيء واحد ، هو أن يؤدي واجبه تجاه أرضه ووطنه ، أي أنه يريد أن يموت والسلاح في يده يدافع من يعتدي على أرضه وكرامته . إنّ ابن الجنوب يتجرع المرارة ويمضغ الألم ويلتهب من داخله . لا على تدمير بيته بألغام إسرائيل ، أو قتل ولده برصاصها ، ولا على حقله وبقرته ، بل على ذلته ومهانته وإهدار كرامته ، ووقوفه حائراً لا يستطيع الحياة كريماً ولا الموت شهيداً .

إنّ كل جنوبي من أصغر صغير إلى أكبر كبير يتمنى أن يكون هو وزوجته وأولاده قذائف تتفجر على رأس وقلب كل من يطأ أرضه رغماً عن أنفه . وهو يتهم الحكام والمسؤولين بأنهم يحولون بينه وبين هذه الأُمنية . لا يقاتلون من أجله ، ولا يوفرون له أسباب الأمن ، ولا يمهدون له سبيل الاستشهاد على أرضه ومن أجل كرامته ، بل يفرضون عليه بطريق أو بآخر أن يتقبل الهوان ويستسلم للاذلال .

إنّ أهل الجنوب يفضلون ألف مرة أن تكون مساكنهم وقراهم أكوام وخرائب ، وأن يعيشوا في الكهوف والمغاور مع الجهاد والكرامة والقيام بواجب الوطن ، على أن يعيشوا في العمارات والفيلات مع الذل والهوان . ويطلبون من الحكومة — إن كانت لهم حكومة — أن تحولهم إلى جيش شعبي فتضع السلاح في أيديهم وتعين لهم قادة للتدريب والتنظيم ، ثمّ تقول لهم : موتوا في سبيل أرضكم ووطنكم إن كنتم أحراراً كما تزعمون . وعلى أية حال فلا بد أن ينفجر الجنوب في يوم من الأيام بشبابه ورجاله ونسائه وأطفاله إن استمرت الحكومة في تجاهلها للجنوب وإرادة الجنوب .

وبعد ، فانّ الحكام والمسؤولين في لبنان سيبتهجون ويبتسمون يوم عيد الأضحى . أما أهل الجنوب فسيرفعون يوم العيد أعلام الحزن في الشوارع وعلى البيوت ، لا من أجل العدوان على أرضهم وتهديد اسرائيل بالاحتلال ، بل احتجاجاً على المسؤولين وعلى كل من يتجاهل وجود الجنوب ومطالب الجنوب ويتحايل للتهرب من المسؤولية وأداء الواجب .

حول جواب الاستاذ القصيمي *

تساءلت في مجلة الآداب عدد — ١ — ٦٤ عما أراده مؤلف « العالم ليس عقلاً » من اللامعقولية التي حاول إثباتها لكل كائن حي .. وغرضي الأول لفت الأنظار إلى خطر هذا اللون من الأفكار على نهضتنا وأهدافنا .. إنّ الاستهتار بالحياة ، وبالقيم ، وبكرامة الانسان هو استهتار بالوطنية ، وبالحرية ، وبكل رقي وتقدم . هو يأس وانهزام أمام الطامعين فينا والمغتصبين هو تواكل وتخاذل ، ورجوع إلى الوراء مئات السنين .

نحن اليوم أحوج ما نكون إلى من يشد فينا العزم ، ويبعث فينا النشاط ، ويدفعنا إلى الجد والعمل والتضحية .. لقد تخلفنا عن الركب ، وسبقنا الناس في مضمار الحضارة ، والسر كل السر يكمن في وجود أولئك وهؤلاء الذين لا هم لهم إلا تثبيط الهمم ، وفسخ العزائم ، وإلا التشكيك بالقيم ، والتراث ، والأهداف ، وبكل ما يمت إلى صلاحنا بصلة .

تساءلت عما أراد المؤلف من كتاب « العالم ليس عقلاً » ، وفي العدد الثاني من مجلة الآداب لسنة ٦٤ أجاب الاستاذ القصيمي ويتلخص الجواب بأنه :

---

* نشر في مجلة الآداب عدد نيسان ١٩٦٤ .

« منذ بضعة عشر عاماً أصدر كتاباً في القاهرة قرظه الأُدباء والعلماء وأثنوا عليه – ونقل بعض عباراتهم بالحرف – وأنّه منذ ثلاثة أشهر أصدر كتاباً في لبنان لم تهتم به الصحف ، ولا أرباب الأقلام ، مع أنّ البعض قال عنه في جريدة الحياة فقط : لو صدر في بلد فيه ازدهار فكري حقاً لضجت الصحف بتحليله ، ونقل الفصول عنه .. ومن أجل هذا هو يشعر بالمرارة والصدمة .. – أما أنا فقال – إنّي تساءلت ، أو انتقدت ولم أقرأ من الكتاب إلا اسمه فقط لا غير ، وإنّه تمنى لو ألقيت نظرة ، ولو سريعة على بعض سطوره » .

وسيعلم القارىء من الذي كتب دون أن يقرأ أنا أم هو ؟ .. إنّي قرأت وتأملت ، ثم تساءلت عن بعض أقواله التي نقلتها بين « هلالين » جرياً على الشائع المعروف .. ويظهر أن صاحب « العالم ليس عقلا » هو الذي كتب دون أن يقرأ ما نقلته عنه بين الهلالين ..

والآن تعال معي أيها القارىء ، لننظر . ونتبين : من الذي كتب قبل أن يقرأ ؟.. هل الذي قال : العالم ليس عقلاً ، وأنكر الحقائق والقيم ، أو الذي آمن بالعقل وحقائقه ، وأحكامه وقيمه ؟..

قال صاحب « العالم ليس عقلا » في ص ٣٠٣ ما نصه بالحرف : « وجد الكون تحت ظروفه الاضطرارية التي لا قصد فيها ولا عقل .. » وقال ص ٣٠٥ : « إنّ ما في الوجود يشبه أن تقذف طائرة بمقادير من العملة الصعبة بدون قصد في أُسلوب القذف .. » آه من العملة الصعبة .. فانها تماماً كالبرد علة العلل .. وقال في ص ٣٦ : « الكون ليس فيه أفكار . ولا تفسيرات فكرية ، وإنما فيه حركة ، والحركة لا تفسر بغير الحركة . وأُسلوب تفسير الماء بعد الجهد بالماء هو الأُسلوب لتفسير الكون .. » . وفي صفحة ١٦ : « ليس في التزام الانسان بالحياة معنى أكثر من التزام الحجر

بالوجود .. وهل تجد الطبيعة في كلمة ولد معنى أفضل وأذكى من كلمة مات.»
وفي كتابه البالغ ٥٨٠ ص الشيء الكثير من هذا النوع ..

إذن ، فما ذنبي إذا قلت ، وكتبت متسائلاً : « لست أدري : ما الذي حمل المؤلف ، وبعثه على العداء للعقل ، حتى بلغ به الحقد عليه أن أنكر وجوده من الأساس ، أو يعترف له بأدنى أثر في هذا العالم .. » وهل إذا قلت هذا يصدق في ما قال صاحب « العالم ليس عقلا » أنّي كتبت دون أن أقرأ ؟! .

وقال في ص ١٨ : « ليس شيء مما نفعله واجباً ، أو نبلا ، أو بطولة ، ولكنّه تعبير عن ورطة .. » . وفي ص ١٠٥ : «كل الناس يحولون آلامهم ومتاعبهم وجهلهم وكذبهم وحقدهم وبغضاءهم ونفاقهم وهراءهم وغثيانهم إلى كلام : الأنبياء والأذكياء والفنانون والزعماء والحكام وكل الكبار يحولون ذلك – أي نفاقهم وكذبهم الخ . حتى الأنبياء – إلى كلام مكتوب.. » وقال في ص ١٠٩ : « إنّ الناس لا يريدون بأعمالهم أن يحققوا شيئاً ، بل أن يهربوا من الصمت . وأنا أكتب لأنّي لا أستطيع أن أسكت .. » وفي ص ١٠٦ : « الكلام لا يعترف بأي واقع ، ولا بأي منطق .. كل الناس يتكلمون بلا صدق ، ولا عدل ، ولا رحمة ، ولا علم ، ولا ذكاء ، بل ولا إرادة لمعنى الكلام .. كل الناس يكذبون ويقبحون ، ويرفعون أصواتهم عندما يكذبون .. » وفي ص ١٠٧ : « إنّ المتكلمين قوم يبصقون أنفسهم على الآخرين ، وكأنهم يتكلمون ، أو يفكرون .. ولعل البشر لم يخترعوا الكلام ، ليقولوا الحقيقة ، أو ليبحثوا عنها .. » وفي ص ٣٠٩ : لقد كانت عقائد الإنسان الغيبية تعبيراً دائماً عما يريد أن يكون .. والفرق بين من يعبد الله ومن يتبع الشيطان فرق في التعبير عن الاستجابة للذات ، لا عن الاستجابة للحقيقة .. والمبادىء هي التعبير البلاغي عن الأهواء الخاصة ..» .

وبعد إن قال صاحب « العالم ليس عقلا » لا واقع ، ولا منطق ، ولا حقيقة ، ولا بحث عن الحقيقة ، وأنّ من يعبد الله ويتبع الشيطان سواء، وأن المبادىء والمثل تعبير عن الأهواء ، هل بعد هذا يكون قولي : « قال المؤلف : إنّ أفعال الإنسان وأقواله لا تعبر عن الواقع ، ولا تمت إلى الحقيقة بسبب » هل قولي هذا بلا علم ولا قراءة واطلاع !...

وقلت أيضاً : « يعتقد المؤلف بعدم شرعية هذا العالم » وقال في الجواب : أنّي قلت هذا دون أن أقرأ من الكتاب إلا اسمه ، مع أني لم أقل ما قلت إلا بعد أن قرأت قوله في ص ٥٦٩ : « ولكن الكون كوحدة لا تفسير له . وليس علة ولا معلولا ، ولا مركزاً لشيء ، ولا تابعاً لشيء ، وإنما هو كتلة هائلة صماء متوحشة تدور في فراغ رهيب متوحش لا حدود له ، ولا معنى .. » . وأيضاً قرأت قوله في ص ٥٧٠ و٥٧١ و٥٧٢ : « البشر يتطورون بمعنى يتراكمون ..وكل مايحدث في الطبيعة هو تراكم لاتطور . إنّ وجودنا مفروض علينا بلا تدبير منا ، وبلا تدبير من خارج . إنّه قضاء لا تدبير فيه لا لمن قضاه ، ولا لمن قضى عليه .. » . وفي ص ٣٠٦ : « التفكير المفصل عن الوجود ليس غير موجود ، بل مستحيل الوجود .. لا يوجد منطق ، ولا تفكير . وإنما مادة لها خصائص ، واحساسنا بهذه الخصائص المادية هو ما نسميه منطقاً ، أو فكراً ، أو قصداً مدبراً .. ».

والآن – يا أُستاذ – من الذي كتب ، ولم يقرأ ، حتى ولا قراءة سريعة لبعض السطور ؟!. كلا ، يا أُستاذ إنّي قرأت شطراً كبيراً من كتابك ، لا بعض سطوره فقط ، وتأملت كثيراً في كلماته قبل أن أخط حرفاً واحداً. وأعطيتك الشواهد والأرقام على ذلك حين قابلت بين ما قلته أنا ، وما جاء في كتابك « العالم ليس عقلاً » .. أما الذي كتب دون أن يتأمل فهو الذي قال في ص ١٦ و٥٧٢ : « إن كلمة مات ، وكلمة ولد في معنى واحد » وفي ص ١٩ : « أبعد الناس عن الاحساس بالفضائل ، واحترامها هم

أكثرهم اعطاء لها [1] ... » وفي ص ١٠٩ : « إنّ حوافز كل عمل نبيل هو حوافز كل عمل سخيف .. » وفي ص ٢٢٧ و٢٢٨ : « والعقائد الدائمة أنّ براهين وجود الله هي دائماً براهين نفيه ، وأن أسباب الثناء عليه هي أسباب الطعن فيه .. » وأيضاً في ص ٢٢٧ : « إذا اشترطت لله شروطاً فانك لن تجده ، وإن لم تشترط له أية شروط فانك من جهة تحقره ، ومن جهة أُخرى لا تستطيع أن تثبته . فالله مشروطاً محال ، وغير مشروط محال وخطيئة ..» وفي ص ٥٧٣ : « قالت الأديان : إنّ البشر وجدوا ليعبدوا الله ، أما المؤمن فيرى أنّ الله أوجده البشر .. » في ص ١٠٦ : « والذي يقول : السلام عليكم . ليس مسالماً أكثر من الذي يقول : اللعنة عليكم .. ».

كل هذا . وأكثر منه قرأته – يا استاذ – في كتابك « العالم ليس عقلا» قبل أن أخط حرفاً واحداً .. وفيه تجد التفسير ، لاكتفائي بالتساؤلات التي نشرتها في مجلة الآداب . وأشرت في أولها إلى ذلك .. وربما وجدت فيه أيضاً التفسير لسكوت الأُدباء والمفكرين والصحف في لبنان عن الكتاب الذي أصدرته منذ ثلاثة أشهر .. هذا السكوت والتجاهل الذي شعرت أنت من أجله بالصدمة والمرارة .

أجل – يا أستاذ – فصل واحد لم أقرأه في كتابك « العالم ليس عقلاً » حين كتبت تلك التساؤلات . ولذا لم أُشر إليه بحرف واحد من قريب أو بعيد . أما الآن وقد قرأت هذا الفصل . وأعني ما ذكرته بعنوان « طبيعة التفكير العربي » فاني أنقل للقراء مقتطفات منه . لا للرد عليها ، بل كعذر للأُدباء والمفكرين في لبنان بلد الإشعاع حين تجاهلوا الكتاب الذي أصدرته منذ ثلاثة أشهر . ومما قاله المؤلف في ص ٤٨٣ وما بعدها :

---

(١) أي ان فاقد الشيء يعطي منه الكثير ، وعلى هذا المنطق أجاب عن تساؤلاتي دون أن يقرأها ، ثم اتهمني باني كتبت عن الكتاب ، ولم أقرأ منه شيئاً ..

« إحدى خصائص التفكير العربي عجزه عن التفوق على ظروفه ، وتكييفها تكييفاً كبيراً .. إنه عاجز عن الاقتحام ، فلا يكون فعالا .. التفكير العربي لم يستطع أن يتصور السعادة ، أو المثالية في هذه الحياة ، أو في الانسان ، فهو لا يدرك كمال الانسان ، ولا كمال الأشياء .. التفكير العربي قد عجز عن أن يؤمن بالأحزاب المتعددة الحرة لرسوخ الوحدانية فيه .. التفكير العربي يترقب دائماً الموت .. وفناء العالم .. التفكير العربي تفكير لا هوتي . يفسر كل شيء تفسيراً لا هوتياً .. وللخيال العربي عيبان : عاجز في طاقته ، منحرف عن موضوعه .. الشعوب العربية لا تعترف بقيمة النقد، بل لا تعرفه .. سوق الفكر العربي أعجب سوق ، يوجد فيها كل الناس يتساومون ، ويتعاملون ، ولكن جميع البضائع التي يتعاملون بها زائفة .. التفكير العربي ضيق الصدر متابع الأنفاس ، لا يملك الطاقة التي تجعله يحلق فوق وحدات الموضوع .. التفكير العربي تفكير اتكالي هارب من نفسه — أما السر لذلك كله — فهي نظرية وجود الله ، فهي القاعدة لهذه الأخطاء..».

إلى آخر هذا الكلام الذي استغرق ٦٤ صفحة من صفحات الكتاب .. والعجيب الغريب أن يقول المنصفون من علماء الغرب : لولا الفكر العربي لتأخرت الحضارة الحالية مئات السنين ، ويقول نهرو رئيس وزراء الهند في كتابه « لمحات من تاريخ العالم » : العرب هم بحق وجدارة آباء العلم الحديث ، ثم يقول الاستاذ القصيمي العربي : الفكر العربي ضيق متقاعس اتكالي لا يستطيع التصور ، ويعجز عن التفوق ...

أليس هذا تثبيطاً للهمم والعزائم ، وترويجاً — عن قصد أو غير قصد— لدعايات الطامعين أصحاب العملات الصعبة ، ومؤامراتهم ؟! .ومن غريب الصدف أن ينشر هذا القول في الوقت الذي تعزم اسرائيل على تحويل مجرى نهر الأُردن .. نحن اليوم — كما قلت — أحوج ما نكون في أي وقت مضى إلى أدب الحياة والنهضة ، والتشجيع والتفاؤل ، لا إلى أدب الانهزام ،

والتخاذل ، وتشويه الحقائق . إلى أدب يصور لنا التطور والتقدم . لاالتكدس والتراكم ، وتشبيه الانسان بالحجر . والبشر بالقطع اللاواعية المتراكمة .. ولست أدري لماذا يحاول الكاتب أن يقيم الحواجز .. ويضع العقبات في طريق نهضتنا وتقدمنا ؟! .ولكن هيهات أن يقف دعاة اللامعقولية ، ونفي القيم من هذه الحياة .. بل ألف هيهات أن يقفوا أمام الذين يؤمنون بالله . وبقوميتهم . وبكل ما فيه الخير والصلاح لامتهم وللناس أجمعين ،ويعملون لذلك جاهدين مخلصين . هازئين بالأدب البائس اليائس . وبدعاته في الشرق والغرب .

وبعد ، فنحن بالمرصاد لكل مؤامرة على ديننا . وتراثنا وأخلاقنا .

المتعـــة

أو الزّواج الموقت

تكلم الفقهاء عن المتعة بمعنى الزواج الموقت ، وأجمعوا قولاً واحداً — السنّة منهم والشيعة — على أنّ الإسلام شرّعها ، ورسول الله (ص) أباحها ، واستدلّوا بالآية ٢٤ من سورة النساء : « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ فآتُوهُنّ أجُورهُنّ فَرِيضَةً » .

وبما جاء في صحيح البخاري ج٩ كتاب النكاح أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأصحابه في بعض حروبه : « قد أُذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا .. أيّما رجل وامرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليال ، فإن أحبّا أن يتزايدا ، أو يتتاركا تركا » .

وبما جاء في صحيح مسلم ج٢ باب نكاح المتعة ص ٦٢٣ طبعة ١٣٤٨هـ عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال : « إستمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر » وفي الصفحة نفسها حديث آخر عن جابر قال فيه : ثم نهانا عنها عمر .

وبعد أن اتفق المسلمون جميعاً على شرعيتها وإباحتها في عهد الرسول

لأعظم (ص) اختلفوا في نسخها . وهل صارت حراماً بعد أن أحلها الله سبحانه . ذهب السنّة إلى أنّها نسخت . وحرّمت بعد الإذن بها . قال ابن حجر العسقلاني في كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج١١ ص٧٠ طبعة ١٩٥٩ : « وردت عدة أحاديث صحيحة صريحة بالنهي عن المتعة بعد الإذن بها » ... وجاء في الجزء السادس من كتاب المغني لابن قدامة ص ٦٤٥ طبعة ثالثة ما نصه بالحرف : « قال الشافعي : لا أعلم شيئاً أحلّه الله . ثم حرّمه ثم أحلّه . ثم حرّمه إلا المتعة » .

وقال الشّيعة : أجمع المسلمون كافة على إباحة المتعة . واختلفوا في نسخها . وما ثبت باليقين لا ينفى ويزول بمجرّد الشّك والظّن ، بل لابد من ثبوت النسخ يقيناً . وأيضاً استدلوا على عدم النسخ بروايات كثيرة عن أهل البيت ذكرها الحرّ العاملي في كتاب الوسائل ، منها أنّ الإمام الصّادق عليه السّلام سئل : هل نسخ آية المتعة ؟ قال : لا . لولا ما نهى عنها عمر ما زنى إلا شقي .

وليس من شك أنّ عدم النسخ لو ثبت عند السنّة لقالوا بمقالة الشيعة . ولو لم يثبت عند الشيعة لقالوا بمقالة السنّة . وليست آية المتعة وحدها محلاً للإختلاف من حيث النسخ وعدمه . فقد اختلف السنّة والشيعة في غيرها من هذه الحيثية ، كما اختلف فقهاء السنّة بعضهم مع بعض ، وفقهاء الشّيعة كذلك في نسخ جملة من الأحكام والآيات .

ومهما يكن ، فإنّ الزّواج المنقطع — أي — المتعة يجتمع مع الزّواج الدّائم في أشياء ، ويفترق عنه في أشياء عند الشيعة ، وفيما يلي نذكر ملخّصاً لما يجتمعان فيه ، ويفترقان :

المساواة بين الزّواج الدّائم أو المنقطع :

أجمع فقهاء المذهب الجعفري على أنّ الزواج الدّائم والمنقطع يشتركان في الامور التالية :

١ – لا بد في كلّ منهما أن تكون المرأة عاقلة بالغة راشدة خالية من جميع الموانع ، فلا يجوز التمتع بالمتزوجة ، ولا بالمعتدة من طلاق أو وفاة، ولا بالمحرّمة نسباً أو مصاهرةً أو رضاعاً ، ولا بالمشركة ، وما إلى هذه مما هو مفصّل في المحرّمات .. وأيضاً لا يجوز لهـا هي أن تتمتّع إلا بالمسلم الخالي من جميع الموانع .

٢ – لا يصح الزّواج المنقطع بالمعاطاة ومجرّد المراضاة . بل لا بد فيه من العقد اللفظي الدّال صراحة على قصد الزّواج ، تماماً كالزّواج الدّائم . ولا يقع عقد المتعة بلفظ : وهبت ، وأبحت ، وآجرت ، ونحوه ، بل ينحصر لفظ العقد بخصوص : « أنكحت ، وزوّجت ، ومتّعت » .

قال صاحب الجواهر : « أما صيغة زواج المتعة فهي اللفظ الذي وضعه الشرع للإيجاب : كزوّجتك وأنكحتك ومتّعتك ، أيّها حصل وقع الإيجاب به ، ولا ينعقد بغيرها ، كلفظ التمليك والهبة والإجارة ، ويقع القبول باللفظ الدّال على الإنشاء كقبلت ورضيت » .

٣ – عقد الزّواج المنقطع كالدّائم لازم في حقّ الرّجل والمرأة .. أجل، للزّوج أن يهب المدّة المتّفق عليها للمتمتع بها ، كما له أن يطلّق الزّوجة الدّائمة .

٤ – الزّواج المنقطع ينشر الحرمة ، تماماً كالدّائم . فإنّ المتمتّع بها تحرم على الزّوج مؤبداً ، وبنتها ربيبته ، ولا يجمع بين الأُختين متعة كما لا يجمع بينهما دواماً ، والرضاع من المتمتّع بها كالرّضاع من الدّائمة من غير تفاوت . أما الرّضاع من الزّانية فلا أثر له إطلاقاً ، والفرق أن المتمتّع

بها زوجة شرعية ، وفراش صحيح ، أما الزّانية فلها الحجر .

٥ ـ الولد من الزّوجة المنقطعة كالولد من الدّائمة في وجوب التّوارث والإنفاق ، وسائر الحقوق المادية والأدبيّة . فقد سئل الإمام الصّادق عليه السّلام عن المرأة المتمتع بها إذا حملت ؟ فقال : هو ولده .

٦ ـ يلحق الولد بالزّوج بمجرّد الجماع ، حتّى ولو عزل ، وأراق ماءه في الخارج . لأنّ المتمتّع بها فراش شرعي كالدّائمة ، والولد للفراش إجماعاً ونصّاً .

٧ ـ المهر في الزّواج المنقطع كالمهر في الزّواج الدّائم ، من حيث عدم تقديره قلة أو كثرة . فيصح بكل ما يقع عليه التّراضي واحداً كان أو مليوناً عملاً بالآية الكريمة : « وإنْ آتَيْتُمْ احْدَاهُنّ قِنْطاراً فَلا تَأخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً » .

٨ ـ إذا طلّق الزّوجة قبل الدّخول يثبت لها نصف المهر المسمّى ، وكذا إذا وهب المدّة للزّوجة المؤقتة قبل أن يدخل . أما إذا انقضت المدّة دون أن يدخل لسبب فلها المهر كاملاً . وقيل : نصف المهر .

٩ ـ لا أثر للخلوة من غير الدّخول في الزّواج الدّائم والمنقطع بالنّسبة إلى المهر والعدّة .

١٠ ـ على المتمتّع بها أن تعتد مع الدّخول بها بعد الأجل ، ولا عدة عليها إذا لم يدخل ، تماماً كالزّوجة الدّائمة إذا طلقت من غير تفاوت ، وعليهما معاً العدّة الكاملة من وفاة الزّوج ، سواء أدخل أو لم يدخل .

١١ ـ كلّ شرط سائغ في الشّريعة الإسلامية تشترطه المرأة أو الرّجل في متن العقد فهو نافذ كالشّرط في الزّواج الدّائم ، لحديث : « المؤمنون عند شروطهم » .

١٢ ـ تحرم مقارنة الزّوجة ، وهي في الحيض منقطعة كانت أو دائمة.

١٣ ــ إذا عقد عليها متعة ، ثم تبيّن فساد العقد ، لسبب موجب للتحريم فسد العقد ، ولا شيء لها من المهر إن لم يدخل . أما إذا تبيّن فساد العقد بعد الدخول فينظر : فإن كانت عالمة بالتحريم ، ومع ذلك أقدمت ومكنت من نفسها فلا شيء لها ، لأنّها بغي . وقد جاء في الحديث : « لا مهر لبغي » وإن كانت جاهلة فلها المهر ، كما هو الحكم في الدّائمة .

١٤ ــ لا يجوز أن يدخل على المتمتّع بها بنت أُختها ، أو بنت أخيها إلا بإذنها ، كما هو الحكم في الدّائم .

التباين بين الزّواج الدّائم والمنقطع :

ويفترق الزّواج الدّائم عن الزّواج المنقطع في الامور التّالية :

١ ــ لا بد في الزّواج المنقطع أن يذكر في متن العقد أجل معين لا يقبل الزّيادة والنقصان ، أمّا الزّواج الدّائم فلا يصح ذكر الأجل فيه بحال . وهذه الحقيقة تدل على نفسها بنفسها . وتحمل قياسها معها .

وإذا قصد كل من الرّجل والمرأة الزّواج المنقطع . وتركا ذكر الأجل في متن العقد نسياناً ، فهل يقع الزّواج دواماً ، أو متعة ، أو يكون العقد لغواً ، لا يقع هذا ، ولا ذاك ؟ .

ذهب المشهور بشهادة صاحب المسالك إلى أنّ الزّواج ، والحال هذي ، يقع دائماً ، بل قال صاحب الجواهر : « لعلّه مجمع على ذلك ، لصلاحيّة اللفظ للدوام ، ولقول الإمام الصّادق عليه السّلام : « إذا سمّي الأجل فهو متعة ، وإن لم يسمّ فهو نكاح ثابت » .

وقال بعض الفقهاء : بل يقع لغواً لا دائماً ولا منقطعاً ، لأنّ ما قصد لم يقع ، وما وقع لم يقصد .

٢ ــ المهر ركن من أركان العقد في الزّواج المنقطع ، فلو أخلّ بذكره في متن العقد بطل من رأس ، قال الإمام الصّادق عليه السّلام : « لا تكون متعة إلا بأمرين : أجل مسمّى ، وأجر مسمّى » وعنه في رواية ثانية : « أجل معلوم ، ومهر معلوم » .

أما الزّواج الدّائم فالمهر ليس ركناً له ، بل يصح مع المهر ودونه ، فمن تزوّج امرأة ولم يذكر لها مهراً في متن العقد ، ودخل بها فعليه مهر المثل.

٣ ــ إذا طلقت الزّوجة الدّائمة ، قبل الدّخول فلا عدة لها ، ومثلها المنقطعة إذا انتهى الأجل قبل الدخول . وإذا طلقت الدّائمة بعد الدّخول وكانت غير حامل فعدّتها ثلاث حيضات ، أو ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملاً فعدّتها وضع الحمل .. هذا بالقياس إلى طلاق الدائمة ، وانتهاء أجل المنقطعة ، أما بالنسبة إلى عدّة الوفاة فلا فرق بينهما إطلاقاً ، فكل منهما تعتد أربعة أشهر وعشرة أيام ، سواء أكان قد دخل الزّوج أم لم يدخل، هذا مع عدم الحمل ، أما معه فتعتدّان بأبعد الأجلين من وضع الحمل وهو أربعة أشهر وعشرة أيام .

٤ ــ اختلف فقهاء المذهب الجعفري في توارث الزّوجين في الزّواج المنقطع ، فذهب جماعة ، منهم الشّهيد الأول محمد مكي (ت ٧٨٦ ه) والشّهيد الثاني زين الدّين العاملي الجبعي (ت ٩٦٥ ه) ذهبوا إلى أنّه لا توارث إلا مع الشرط ، لأنّ عقد الزّواج بطبيعته لا يقتضي التوارث ، ولا عدمه ، ومتى حصل الشرط وجب العمل به ، لحديث : « المؤمنون عند شروطهم » ولقول الإمام الصّادق عليه السّلام : « إن اشترطا الميراث فهما على شرطهما » .

٥ ــ لا نفقة للمنقطعة إلا مع الشرط ، أمّا الدّائمة فلها النفقة ، حتّى ولو اشترط عليها عدم الإنفاق .

٦ — يكره التمتّع بالأبكار ، أما الزّواج بهنّ دواماً فمندوب ، قال صاحب الحدائق : « سئل الإمام الصّادق عليه السلام عن المتعة ، فقال : إنّ أمرها شديد ، فاتقوا الأبكار » .

٧ — قال الفقهاء : للزّوجة الدّائمة حقّ على الزّوج أن ينام في فراش قريب من فراشها ليلة واحدة من كل أربع ليال معطياً لها وجهه ، وإن لم يتلاصق الجسدان ، والمهم أن لا يعدّ هاجراً ، أما المواقعة فتجب عليه في كلّ أربعة أشهر مرّة ، ولها أن تطالب إن امتنع عن المبيت . أو المواقعة .

ولا يجب شيء من ذلك للمنقطعة ، بل يترك له الخيار . وليس لها أن تطالبه ، لا بالمبيت ولا بالمواقعة .

٨ — إذا طلّقت الزّوجة الدّائمة طلاقاً رجعيّاً بعد الدّخول فللمطلّق أن يرجع إليها قبل انقضاء العدّة . وإذا كان الطلاق خلعيّاً ، وعن كره وبذل منها له ، فلها الحقّ أن ترجع بالبذل ما دامت في العدّة .

أما المنقطعة فإنّها تبين منه بمجرّد انتهاء المدّة أو هبتها . ولا يحقّ له ولا لها الرّجوع أثناء العدّة ، وبالأولى بعد انتهائها . أجل ، يجوز له أن يجدد العقد عليها دواماً أو انقطاعاً ، وهي في العدّة منه . ولا يجوز ذلك لغيره إلا بعد انقضاء العدّة .

٩ — إذا دخل بالزّوجة الدّائمة فقد استقرّ عليه تمام المهر ، فإن امتنعت بعد ذلك ولم تمكّنه من نفسها نشوزاً منها وعصياناً فلا يسقط من مهرها شيء ، وإنّما تسقط نفقتها ، لأنّها في مقابل الطاعة .

أما إذا دخل بالمنقطعة ، ثم امتنعت من غير عذر فللزّوج أن يضع من مهرها بنسبة الوقت الذي امتنعت فيه . قال صاحب الجواهر : « لو أخلّت هي ببعض المدّة كان له أن يضع من المهر بنسبتها ، إن نصفاً فنصف ، وإن ثلثاً فثلث ، بلا خلاف أجده ، بل ولا إشكال للرّوايات المعتبرة المستفيضة

التي منها رواية ابن حنظلة ، قال : سألت الإمام الصّادق عليه السّلام أتزوّج امرأة شهراً بشيء مسمّى ، فتأتي بعض الشهر ، ولا تفي ببعض ؟ قال : تحبس عنها من صداقها بقدر ما احتبست عنك إلا أيام ، فإنّها لها .

١٠ – يجوز أن يتمتع الرّجل بأكثر من أربع نساء ، ولا يجوز له في الدّائم الزّيادة على الأربع . وقد ذكر الحرّ العاملي في وسائل الشّيعة روايات عن أهل البيت تدل على ذلك .. ولكنّه ذكر إلى جانبها روايات أُخرى تدل على عدم جواز الزّيادة على الأربع في المتعة ، كما هو الحكم في الدّائم ؟ فقال : هي أحد الأربعة . ومنها ما رواه زرارة عن الإمام أبي جعفر الصّادق عليه السّلام أنّه سئل : هل المتعة مثل الدّوام ، يتزوج ما شاء ؟ فقال : « لا. هي من الأربع » .

وبالجملة : إنّ كل ما يثبت للزّوجة الدّائمة يثبت للمنقطعة إلا ما خرج بالدليل . وقد دلّ الدّليل على ما ذكرناه من الفروق ، فيبقى غيرها من الآثار والأحكام على حكم العموم . قال صاحب الجواهر : « الأصل اشتراك الدّائم والمنقطع في الأحكام التي موضوعها النّكاح والتّزويج مما يشغل المنقطع إلا ما خرج بالدّليل » وجاء في كتاب اللمعة وشرحها ما نصّه بالحرف : « حكم الزّواج المنقطع كالدّائم في جميع ما سلف من الأحكام شرطاً وولاية وتحريماً إلا ما استثني » .

ومن هنا قال كثير من الفقهاء : إنّ حقيقة المنقطع والدّائم واحدة ، وإنّ لفظ الزّواج موضوع لمعنىً له فردان : أحدهما الزّواج الدّائم ، والآخر الزّواج المنقطع ، تماماً كالإنسان الشامل للذكر والانثى .

التمتّع بالعفيفة :

ومن الخير أن نختم الكلام عن المتعة ببعض ما جاء فيها عن أهل البيت

عليهم السّلام فقد سئل الإمام الصّادق عليه السّلام عن المتعة ؟ فقال : هي حلال ، ولا تتزوّج إلا عفيفة ، إن الله سبحانه يقول : « والّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » .

وفي رواية أُخرى إنّه قال : إنّ الله عزّ وجلّ يقول : « الزّاني لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً وَالزّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إلاّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٍ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى المُؤْمِنِينَ » .

ومن هنا قال الشّيخ الصّدوق : « إنّ من تمتّع بزانية فهو زان » .

وجاء في كتاب وسائل الشّيعة مجلد ٣ ص ٧٤ طبعة ١٣٢٤ هـ أنّ عليّ ابن يقطين سأل الإمام الرّضا حفيد الإمام الصّادق عليهما السّلام عن المتعة ؟ فقال له : ما أنت وذاك قد أغناك الله عنها .

وسأله آخر ، فقال : هي حلال مباح مطلق لمن لم يغنه الله بالتّزويج . فليستعفف بالمتعة ، فإن استغنى عنها بالتّزويج فهي مباح له إذا غاب عنها . أي عن زوجته .

محتويات الكتاب

مؤسسة جوني وادلبي للطباعة والتجليد
بيروت ـ لبنان